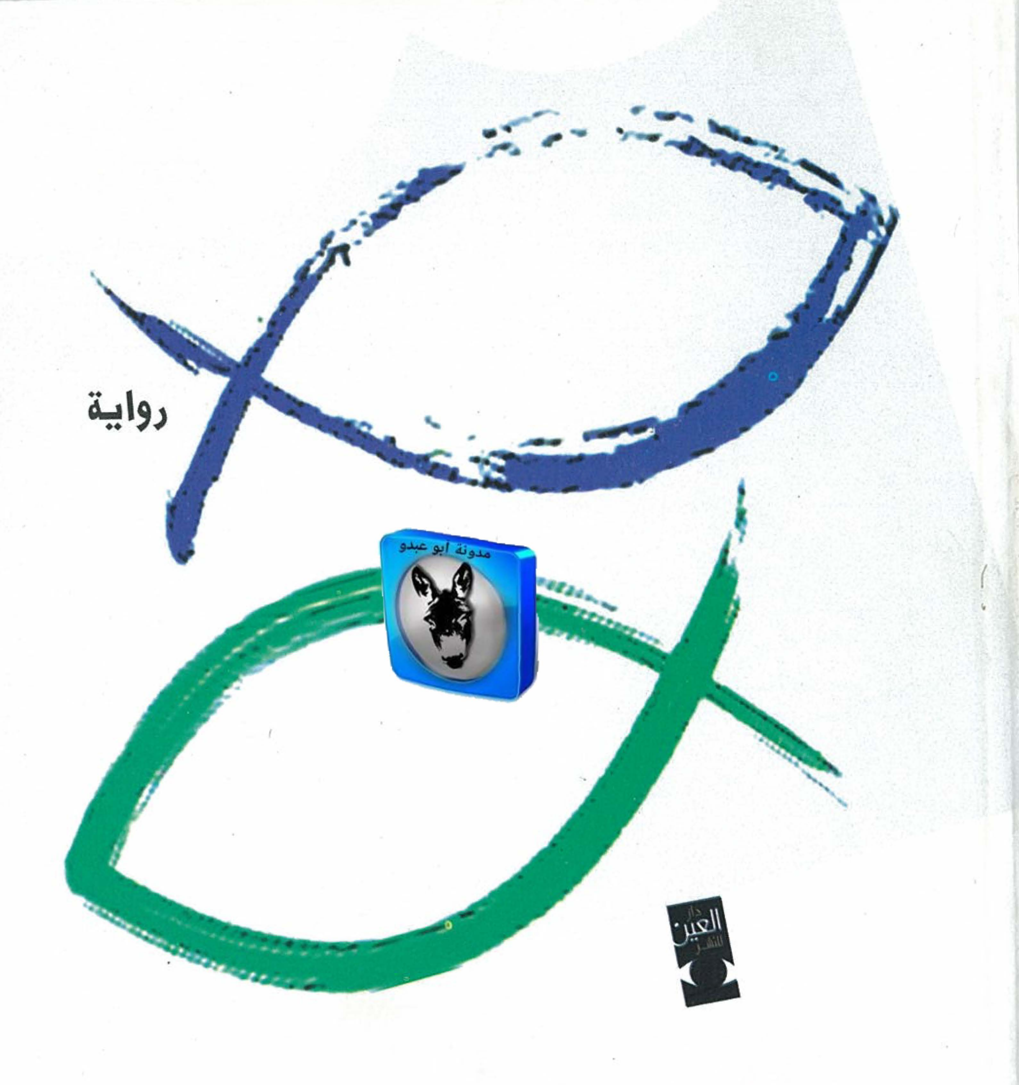


أرحام سماويـة

محمد عزب

أرحام سماويـة

أرحام سماوية

رواية

محمد السيد علي عزب

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
www.elainpublishing.com

الغلاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٥٨٠ /٢٠١٢
I.S.B.N : 978 - 977 - 490 - 189 - 8

أرحام سماوية

رواية

محمد عزب

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عزب، محمد.
أرحام سماوية: رواية/ محمد عزب.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٨٩ ٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

٨١٣

رقم الإيداع/ ١٦٥٨٠/ ٢٠١٢

1

أخذت "عطيات" تطوي الأرض تحت قدميها في طريقها نحو الغرب. شعرت بآلام شديدة في ظهرها ومفاصلها وأطرافها. نزف أنفها نتيجة ارتفاع درجة الحرارة ولطخت الدماء ثوبها. لم تعد قادرة على التقاط أنفاسها فتوقفت بالقرب من "طابية المكس". أحست بسخونة في نعليها فخلعتهما ووضعت قدميها المتورمتين في المياه المالحة. تحسست بطنها المنتفخة وناءت بحملها بينما راحت أمواج البحر تُفرغ ما في أحشائها من الأعشاب والرمال السوداء وكسر المحار و"حدف المراكب" على الصخور البائسة.

مالت الشمس الملتهبة لتطفئ أحزانها السرمدية في المتوسط كما تفعل كل يوم، واصطخبت النوارس وهي تغطس للمرة الأخيرة قبل أن تؤوب لأفراخها ممتلئة البطون. أيها البحر المحبوس في قمقم الأساطير... أيها

البحر الذي بلع أحلام الملوك وذهب القراصنة وأمنيات العاشقين. أيها البحر الذي تهواه الشطآن وتعلم أن نهايتها على يديه. أيها المسحور والمحسور... كم من القلوع حطمت؟! كم من المرافئ عطلت؟! كم من الأشخاص خطفت؟!

نظرت عطيات إلى السفن الغارقة في دهشة. قطعت هذه السفن مسافات طويلة؛ وما إن تأهبت لدخول الميناء حتى اصطدمت بالصخور فمالت وتكسرت أجزاؤها. في أحيان كثيرة نشعر أننا قريبين من مقصدنا، لكننا في الواقع نكون بعيدين كل البعد عنه! تذكرنا هذه السفن بالحيتان التي تندفع إلى الشواطئ وينحسر عنها الماء فتبقى أسيرة حبيسة ولا تستطيع أن تعود أدراجها. ما أشبه السفن "الشاحطة" بالإنسان حين تنتهي رحلة حياته مقيدا مكبلا ثم تتداعى أعضاؤه وتتمرد وتموت موتا بطيئا.

على مؤخرة إحدى هذه السفن التي انكفأت مقدمتها في الماء كان هناك رسما لتوأم الجوزاء معلقا في الهواء. تابعت عطيات السير وهي تنظر إلى التوأم بين الفنية والأخرى. وضعت يدها على بطنها محاولة رفعها كما تفعل كل الحوامل.

تقول الأسطورة الرومانية أن الصبيين "كاستور وبولكس" Castor & Pollux كانا يقودان المواليد إلى الحياة والأموات إلى العالم الآخر، ولذا ينظر أحدهما نحو الشرق والثاني نحو الغرب، دلالة على أنهما يتبعان الشمس في شروقها وغروبها. لو قرر أحدهما أن يقف فجأة أو أن يتحرك نحو اليمين أو اليسار لانقلب توأمه لأن كلاهما أستد ظهره إلى ظهر الآخر. في يوم من الأيام لقي "كاستور" مصرعه. ولأن حياة أخيه

"بولكس" مرتبطة به؛ ولأنه لا يستطيع العيش دونه فقد قتل نفسه. نظر كبير الآلهة "زيوس" من فوق قمة جبل "الأولمبس" إلى هذه التضحية وكبر في عينيه صنيع "بولكس" وحبه لأخيه وإيثاره الموت عن حياة لا يوجد بها توأمه فقرر أن يضع صورتهما في برج السماء ليحيا معا إلى الأبد وفي ذاكرة الخلود.

عند مصب ترعة "الخندق" بمنطقة "المكس" والتي تربط بحيرة "مريوط" بالبحر المتوسط عُلقت بعض اللافتات الانتخابية بطريقة عشوائية على البيوت الهشة المقهورة: "مصر القوية" و"النهضة إرادة شعب" و"سنحيا كراما"... أخذت بعض القطط تلتهم الأسماك الميتة التي قتلتها مخلفات المدابغ وشركات البترول وقذفت بها على جانبي الترعة. مرت سيارات كثيرة في تؤدة على الجسر. اليوم هو نهاية الأسبوع ويقصد "العجمي" جمع غفير من سكان الإسكندرية للاسترخاء وإراحة أعصابهم المتعبة. بدأ الصيف مبكرا هذه السنة لأن رمضان سيشطره نصفين. ما هي إلا بضعة أيام حتى تعج المدينة بالمصطافين بعد انتهاء امتحانات الثانوية العامة.

كان ممشى الجسر يعج بطاولات السمك، وارتفع صياح المارة وهم يفاصلون في سعر الأكوام التي تحوي أنواعا غير متآلفة من الأسماك أو ما يطلق عليه السكندريون "شروة". لم تعد الأسماك رخيصة كما كانت في الماضي حتى في المدن الساحلية! على أي حال يقل السمك نسبيا ويتغير طعمه من مارس إلى أغسطس بينما يزيد في الشهور التي تنتهي بالراء من سبتمبر إلى فبراير ويحلو طعمه كما هو معروف لدى سكان السواحل.

انتشرت رائحة اليود في الهواء وراح بعض قائدي السيارات وركابها ينظرون إلى السمك بعيون مقرورة ومشاعر مختلفة. هذا رب أسرة وقف في الأتوبيس ممسكا كالأسير أو السجين بالعمود المعدني متمنيا أن يدخل على صغاره بسمكة أو سمكتين لكل منهم. يحتاج أولاده الخمسة للبروتين لكي ينموا أصحاء، لكن راتبه يكفي بالكاد لشراء الخبز والفول و"المكرونة السايبة".

وهذه امرأة تتمنى لو عادت لزوجها "المهدود حيله" في العمل بكيلو جمبري أو "سبيط" ليجدد طاقته الخائرة. لم يعاشرها منذ شهر أو يزيد، وغالبا ما ينام قبل أن يُنهي تناول طعامه من شدة الإجهاد. لم يعد يسألها عن أيام حيضها؛ و لم يعد يكترث بقمصان نومها الرخيصة التي دأب على شرائها من العربات التي تقف في ميدان الساعة "بكرموز".

غدت أيامها كلها حيض بلا تبويض ونفاس بلا حمل. لا تدري هل زهد فيها زوجها أم تراه زهد في الدنيا بأسرها؟! كل ما تحتاجه هو بعض الوقت والمال لتُخفي هذه الشعرات البيضاء القليلة وتقضي على هذه البثور في خديها وصفار أسنانها وخشونة ركبتيها ومرفقيها وتشقق كعبيها وهذا السواد بين إبطيها وفخذيها، لكن يبدو أنها قد فقدت هي الأخرى الرغبة في الأشياء وانضمت لصباح وهي تغني "وأحس إن عمري فات، من غير ما أحب عمري وأعشق الحاجات."[1]

تجمعت بعض مراكب الصيد الصغيرة أسفل الجسر. من يرى هذه "الفلايك" من فوق مبنى شاهق يحس أنها أسماك صغيرة تنقر قطعة من الخبز أو قل عشرات من الحيوانات المنوية تتدافع جاهدة لتجتاز قناة

"فالوب" وتظفر بالغنيمة. على إحدى هذه المراكب الرشيقة وقف شابان يجمعان الرزق. عند رؤيتهما تذكرت عطيات قصة "سمعان"[2] وشقيقه "أندراوس" والسمك الذي باركه السيد المسيح. ابتسمت للأسماك الفضية المتلألئة وهي تختنق في الهواء ثم انهارت على الحاجز الخرساني أسفل الجسر. هرع إليها الشابان وحملاها إلى بيت شيخ الصيادين الذي تحول في غضون دقائق معدودة إلى خلية نحل وأسرعت إليه النسوة من البيوت اللصيقة بالفوط والمياه الساخنة والكحل البلدي.[3]

اليوم هو 8 يونيو – حزيران – بؤونة من عام 2012 للميلاد. اليوم ينتقل آمون من شرق النيل إلى غربه تكريما للراحلين. اليوم رقدت عطيات على رجاء القيامة وغابت بعد أن ولدت طفلين بريئين. ميل واحد كان يفصلها عن كنيسة العذراء بالدخيلة، لكنها لم تقطعه ولم تصل إليها. يا كنيسة الرب، اللي في القلب في القلب.

انقبض رحمها ليخلص رأس جنينها الثاني. أخذت النسوة تهوي على وجهها باستخدام قطع من "الكرتون" الذي كتب عليه كلمات باللغة الإنجليزية. حين أدركت عطيات أن طفلها أصبح في مأمن وشاهدت القابلة تقطع حبله السري وتربطه علت وجهها ابتسامة راضية ثم توقف قلبها. سبحان من يُخرج الحي من الميت!

يُحكى أن امرأة تركية كانت قد أُدينت بالقتل فحُكم عليها بالإعدام. عند تنفيذ الحكم وبمجرد أن انفتحت "الطبلية" ليسقط جسدها متدليا فوجئ الحاضرون أنها ظلت للحظات تهز ساقيها بشكل عجيب، وما أن هدأت حتى سقط منها جنين سليم وكأن روحها انتقلت إليه. تبين أن

المرأة كانت حامل في شهرها السابع، لكن أحد لم يعلم بأمر حملها لأنها كانت ممتلئة الجسم. لم يُعرف سبب إخفائها موضوع حملها لأنها لو أفصحت عنه لتأخر تنفيذ الحكم بإعدامها حتى الفطام ، الأمر الذي أثار الشكوك في أن تكون قد حملت في هذا الطفل سفاحا، ثم تكتمت الأمر درءا للفضيحة.[4]

في اللحظة التي سقطت فيها عطيات تاب مذنب وألحد مفكر وتعبد ناسك وتضرع خاطئ وسُجن بريء وزُفت عروس وتأوه مسكين وشبع جائع وعشق فتى وتوجع مريض وتاه طفل وترملت زوجة وعاد مسافر واهتدى حيران. في هذه اللحظة أُطلقت تنهيدة وخُطت تعويذة وغُنت ترنيمة وأُطلقت تغريده.[5] في هذه اللحظة أقلعت طائرة وانقلبت سيارة ووصل قطار وتصدع منزل وصودر كتاب وطُبعت صحيفة ووصل خطاب وتدفق بئر ونزل غيث...

في هذه اللحظة وكل لحظة ثمة هناك من يقرأ، ثمة هناك من يكتب، ثمة هناك من يبني، ثمة هناك من يحلب، ثمة هناك من يحصد. ثمة هناك من يغزل... في كل لحظة على وجه البسيطة ثمة هناك من يفعل شيئا طيبا، لكن هناك أماكن تتحاشاها خطوط الطول وتنفر منها خطوط العرض. أماكن تستحي منها الخرائط وتخجل منها الأقمار الصناعية. أماكن يعيش فيها أناس لا يتخيلون ولا يحلمون ولا يثمرون ولا يغفرون؛ أناس خاملون ومتبلدون ومتواكلون ونمامون.

لا تقع عيناك في أي بقعة من قراهم إلا على قبح تنقبض منه النفوس وتضيق به الصدور: بيوت مبنية بالطوب الأحمر تتحدى الأشكال

الهندسية التي تعلمناها في المدرسة فلا هي مستطيلة ولا مربعة ولا حتى شبه منحرفة! عمدان خرسانية تقف عارية في الهواء تنتظر تحويلات الأبناء الذين سافروا إلى الخليج؛ حارات متعرجة تكثر بها الحفر والمنحنيات ويختلط ثراها ببقايا الطعام وأحشاء الدجاج وأوراق الكرنب ومياه "الحموم"؛ أعمدة كهرباء خرجت أحشاؤها ويصدر عنها أزيز يُغري الصبية بالاقتراب منها ثم ما يلبثوا أن يعلقوا بها كالبعوض الذي يغريه ضوء الصاعق ثم ما إن يقترب منه حتى ينفجر وتجف دمائه؛ أكوام من السماد والقذارة والروث والقمامة والحشائش والمخلفات تسد الترع و"الرشاحات"؛ أسراب من الذباب والبعوض والفئران والكلاب الضالة؛ رائحة النوم والروث و"اليوريا" والدخان والغبار ونزح "الطرنشات" وزيت "الفلافل" المحروق تملأ الهواء وتحرق الأنوف.

2

في التاسع والعشرين من شهر فبراير من ثاني سنة كبيسة في أول قرن من الألفية الثالثة[6] هربت عطيات من القرية الظالم أهلها بصعيد مصر متوجهة نحو الشمال. قديما كان الناس يفرون إلى مصر العليا طلبا للحماية والأمان: العذراء والشيعة والمماليك وآخر ملوك بني أمية[7] وغيرهم. كان ذلك في زمن الشهامة والنجابة وشيخ العرب همام[8]، أما الآن فقد غدا الصعيد ممسكا خيره، طاردا لأهله، منقسما على نفسه.

في الطريق إلى محطة القطار مرت عطيات بقبر والديها وسط الزراعات. أرادت أن تتوقف قليلا وتتحدث معهما، لكن الوقت كان ضيقا وحرجا. في الحقيقة هي لا تعلم إذا كانت العظام الموجودة في هذا القبر تخص والديها فعلا من عدمه؟! الموضوع ببساطة أن سيولا عظيمة ضربت القرية العام الماضي، وتدفقت المياه بشدة من اتجاه الجبل فجرفت عظام وجماجم

وأخشاب وأكفان من بعض القبور الهشة للمسيحيين والمسلمين على حد سواء والتي لا يفصلها عن بعضها البعض إلا شارع بعرض ثلاثة أمتار. بعد توقف الأمطار الشديدة انبرى أهل القرية في جمع العظام واجتهد كل في تصنيفها حسب حجمها واتجاهها!

ما إن ركبت عطيات قطار "السد العالي" واطمأنت أنها صارت بمأمن حتى تنفست الصعداء. ورغم ذلك فقد أحست بالخوف والقلق من المجهول الذي ينتظرها. ليس لديها تجارب كثيرة خارج القرية، ويصح وصفها "بالكتكوت اللي لسه خارج من البيضة".

بعد فترة وجيزة ظفرت عطيات بمقعد في القطار المتهالك فجلست ترقب عيدان البرسيم وهي تتمايل بفعل رياح الشتاء الباردة وكأنها أمواج البحر البعيد. وصل إلى أنفها رائحة الطين ممزوجة بعادم القطار وزرفت دمعا أغزر من قطرات المطر التي راحت تنهمر على النوافذ المحطمة. أحكمت الشال الذي تغطي به شعرها ومسحت بطرفه خديها المبتلين.

جاءها اليوم من أقصى البلدة من يحذرها وينصحها بالخروج منها بعد الفتنة التي تسبب فيها أخوها "فادي". القصة معروفة ومكررة: شاب مسيحي يقع في حب فتاة مسلمة أو العكس. نعم... أحب فادي فتاة مسلمة وأحبته "حسناء". أفاقا من نشوتهما وهيامهما ليجدا صليبا مدقوقا برسغ فادي و"ما شاء الله" معلقة برقبة حسناء فأدركا أن الله محبة، لكن البشر يقسّمون هذا الحب ويقطعون منه ويزايدون عليه. أحب الله العالم،(9) لكن الناس كرهوا بعضهم البعض!

ولأن فادي لم يكن بالسامري الصالح[10] ولا حتى متدينا ولا يعرف الفرق بين اللاهوت والناسوت أو العهد الجديد والعهد القديم أو الكنيسة والكاتدرائية أو الأسقف والمطران والقمص والشماس فقد قرر أن يعلن إسلامه في المشيخة لا عن قناعة، بل ليفوز بحسناء. نصحه صديق له أن لا يفعل مرددا على مسامعه الجملة الشهيرة: "يعني هي ضاقت بيك... ما البنات على قفا من يشيل." مر فادي بحيرة ومرارة الاختيار، وأحس أنه بين حائط صخري وكرة النار.

بالفعل عاد فادي في قراره تجنبا للمشاكل مع أمن الدولة ودرءا لسخط راعي الكنيسة الذي وفر له عملا في مكمورة للفحم، ومنحه وأخته بيتا بالإيجار بعد موت والدهما معدما بالتليف الكبدي. تمنى فادي لو امتلك المال اللازم ليرسل والده إلى الصين لزرع فص له. رفع أوراقا إلى الجهات المختصة لعلاجه على نفقة الدولة، لكن والده لم يكن يستحق – من وجهة نظر الحكومة– هذا الشرف؛ ولا حتى بطاقة تموين لأنه – على حد قول الموظفة المختصة – "أُجري" ويعمل باليومية!!

كان راعي الكنيسة – على غرار المقدس بشاي في رواية "خالتي صفية والدير"[11] – شخصية متعصبة. كان موغلا في اتهام الإسلام بالإرهاب والاعتقاد بأنه قد انتشر بحد السيف وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مزواجا وأن بعض آيات القرآن تنسخ بعضها بعضا وهلم جرا من الافتراءات والإدعاءات. قال ذات مرة أن الإنجيل مثل القرآن جُمع من الصدور، وما فعله الحواري "متى" هو ما فعله الصحابي عثمان بن عفان.

في محاضرة له بعنوان "البلد بلد أبونا والغُرب بيطردونا" وصف القسيس الإسلام بأنه دين عنصري إقصائي شيطاني مستشهدا ببعض عبارات من كتاب "أحكام أهل الذمة"[12] وكتاب "الأحكام السلطانية"[13] ومنها: إذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه، وأنه يُكره أن يُبدؤوا بالسلام أو تهنئتهم بولد أو قدوم غائب ونحوهما؛ كما يُكره اتخاذ كتبة منهم وعلو منازلهم على ديار المسلمين أو مخاطبتهم بأخي أو سيدي و نحوهما أو أن يتصدروا المجالس أو أن تُقبل رؤوسهم... ختم القسيس المحاضرة بهتاف حماسي "بالطول، بالعرض... إحنا أصحاب الأرض."

كم من المرات تسبب هذا الرجل في مشاكل بين المسلمين والمسيحيين في القرية؟! كم من المرات تبنى شعارات زكت نيران الفتنة من على شاكلة "لا هنهدا ولا هنام... ولا هنخضع للإسلام" و"يا حقوق الإنسان... القبطي حقه مهان"... كان هذا القس يقف على مسافة متقاربة من "دانتي" و"فولتير" و"زكريا بطرس"[14] وممن هدد بحرق القرآن،[15] وممن أساء لنبي الإسلام بالرسومات أو الأفلام[16] والمسرحيات[17] وممن نعت المسلمين بـ"السراسنة"، أي "الكفار". وربما أدرك الرجل أن تصريحاته قد ألبت عليه قلوب الناس فتحصن بالدير الذي يقع في حضن الجبل ويقف على عتبته جندي مسلم برشاش بورسعيدي عفا عليه الزمن وأكل عليه الدهر وشرب.

وللأمانة لم يكن شيخ الجامع الكبير في القرية أحسن حالا حيث كان مغرما بقصة الرجل الذي دخل الكنيسة وأجاب على أسئلة القسيس وانتهى الأمر بأن أسلم كل النصارى الموجودين.[81] كان هذا الشيخ

مولعا بالدعاء في مكبر الصوت على اليهود والنصارى متمنيا وملحا على الله أن ييتم أطفالهم ويرمل زوجاتهم ويقطع شرايينهم ويشتت شملهم ويخرب بيوتهم ويبدد أموالهم ويجمد الدماء في عروقهم! أما على المستوى الشخصي فكان الشيخ ضيق الأفق، نافد الصبر وعصبي المزاج؛ وإجمالا ينطبق عليه وصف " يقول يا شر اشتر" و"يتخانق مع دبان وشه" كما يقولون في العامية. في يوم من الأيام جادله أستاذ قبطي حول إصراره على استخدام لفظ "نصارى" في خطبه فرد عليه قائلا:

– هذا هو اللفظ الذي استخدمه القرآن.

– لكننا لا نحب أن نُنعت بهذا الوصف.

– إن كلمة "نصارى" تعود إلى مدينة الناصرة.

– نعم ولكننا نحب أن نُنسب للمخلص يسوع.

– إن الأوروبيين كانوا ينعتوننا بالمحمديين.

– نحن لسنا أوروبيين... نحن مصريون ونعرفكم بالمسلمين.

– ونحن أيضا مصريون وننعتكم بما نعتكم به الله... إلا إذا أحببتم أن تُنسبوا للمسيح الدجال.

في شريط كاست انتشر في القرية أشار الشيخ في معرض حديثه عن أهل الكتاب إلى الآية التي تقول "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون"[19]، ثم علق عليها قائلا: "لكن إله اليهود أقرب إلى الله الذي يعبده المسلمون من

رب النصارى لأن اليهود لا يؤمنون بالثالوث. قرأت لنصرانيا من أتباع بولس كلمات يقول فيها أن الثالوث عندهم واحد كالشمس التي هي قرص وحرارة وضوء. لا أفهم كثيرة مسالة واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد هذه اللهم ما إذا كنا نتكلم عن أقماع النسكافيه أو الإله الذي عبده أخناتون!"

في منشور وزعه أحباء الشيخ وأنصاره ممن يقاتلون عن معتقداتهم حتى آخر قطرة من دمائهم علق الشيخ على ظهور العذراء في أسيوط مابين عامي 2000 و 2001 قائلا: "هذه تهيؤات. ذكر ابن الأثير[20] في أحداث سنة 398 هـ أن الحاكم بأمر الله أمر بتخريب كنيسة القيامة بسبب حادثة مشابهة من التحايل والبهتان الذي امتد حتى لأوروبا المتنورة[21] إن الحكومات الفاشلة هي من تسعى لترويج هذه الأكاذيب لتخدير الشعوب باسم الدين. حدث هذا عندما أشاعوا أن يحيي عليه السلام ظهر في وادي النطرون وأرادت الحكومة وقتها تعميره وجلب الناس إليه. حدث هذا في كنيسة الزيتون عام 1968 لتشتيت أنظار الناس عن نكسة سبعة وستين."

وبغض النظر عن صحة رأي الشيخ من عدمه فليس كل الكلام يُقال فأنت لا تعيش بمفردك في هذه البلاد ويتحتم عليك مراعاة شعور الآخرين. الرسول عليه الصلاة والسلام عاد جاره اليهودي في مرضه واستقبل وفد من نصارى اليمن في مسجده، وعمر الفاروق رضي الله عنه رفض أن يصلي في كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مسجدا وعمرو بن العاص رمم ديرا من ماله الخاص. أبتلينا هذه الأيام بنوعية عجيبة من رجال الدين وشيوخ الفضائيات والبترودولار توقظ الفتنة وتضيق الواسع وتحرم

الحلال؛ تفرق ولا تجمع وتشعل الحرائق بدلا من أن تطفئها. على أي حال وقع أحد هذه المنشورات في يد أمن الدولة فقبضوا على الشيخ ووجهوا له تهمة تكدير الأمن العام وأودعوه السجن.

لا شك أن من فجر الكنائس وأشعل النيران في بيوت ومحلات النصارى وتعرض لهم بالأذى واستحل مالهم وعرضهم وممتلكاتهم جلس يوما يستمع لخطاب عاطفي بائس من هذا الشيخ الذي كان -حين لا يجد شيئا يكفره أو يجعله حطب جهنم- يعرج بالحديث على عذاب القبر والثعبان الأقرع وأسياخ الحديد الملتهبة وتهشيم الرؤوس بالصخور وسلخ الجلود؛ ويتوعد الناس بالويل والثبور وعظائم الأمور، وصنوف وألوان أخرى من العذاب. نعم... كان هذا الشيخ ممن يقسمون رحمة الله. لا يعرف عنه سبحانه إلا أنه "شديد العقاب" وينسى أنه أيضا "غفور رحيم".

ألا يكفي أيها الشيخ ما يواجه الإنسان هذه الأيام من ضياع وألم ويأس وحسرة وإحباط وتخبط وتمزق وخيبة أمل؟! ألا يستحق الناس من يربت على كتفهم ويريهم بارقة من الأمل في نهاية النفق المظلم؟! العجيب أنه بينما كان القسيس يتحدث عن يسوع الذي حرر العالم وحمل خطيئة الإنسان منذ عهد آدم مرورا بالأنبياء، وعن الفداء والملكوت الأبدي ويجد الخلاص للمخطئ ومرتكب الصغيرة والكبيرة في دماء المسيح كان الشيخ على بعد مئات الأمتار فقط يتحدث عن الجحيم وجهنم والدرك الأسفل من النار. وبغض النظر عن الحق والباطل في قضية الملة، لكن من أعطى هذا الشيخ الحق لتيئيس الناس وكسر قلوبهم وتضييق الأرض عليهم بما رحبت؟!

ورغم أن هذا الشيخ كان يخطب برخصة من وزارة الأوقاف ورغم أنه لا توجد كهنوتية في الإسلام أو وساطة بين العبد وربه، إلا أنه كان يمارس نوعا غريبا من الوصاية على الحرية والعقل وكلاهما أساس التكليف. نعم كان هذا الشيخ يُلغي العقل الذي ذكره الله في القرآن تسعة وأربعين مرة، وبه عرف الإنسان أن الكون ليس منفلتا ولا يسير بعشوائية وأن هناك إلها محبا يدبر أموره. أكسبته سنوات الغربة في نجد غلظة الصحراء وشطط البادية والغلو في الحكم على الأشياء. عاد من هناك بجيب ممتلئ وقلب فارغ. فيه وفي غيره قال المتنبي: "أغاية الدين أن تحفوا شواربكم/ يا أمة ضحكت من جهلها الأمم؟"

هذا الشيخ ومن شابهه هو من حرم لبس المرأة للكعب؛ هو من حرم كرة القدم؛ هو من حرم الانحناء في ألعاب الدفاع عن النفس؛ هو من قال أن الديمقراطية والليبرالية "كفر"؛ هو من حرم الخروج على ولي الأمر ولو جلد ظهرك وأخذ مالك، وحتى لو كان الوليد بن يزيد[22]؛ هو من حرم الصلاة خلف من يلبس الزى الإفرنجي؛ هو من حرم الاستماع للموسيقى؛ هو من حرم استخدام عبارات التحية مثل "صباح الخير ومساء الخير وسعيدة" وعبارات أخرى مثل "جمعة مباركة ورمضان كريم"؛ هو من حرم قص اللحية؛ هو من حرم التصوير؛ هو من حرم كشف المرأة لوجهها ويديها؛ هو من حرم استخدام العطور الكحولية؛ هو من حرم لعب الشطرنج والجلوس على المقاهي؛ هو من حرم الاحتفال برأس السنة وعيد الأم وعيد الحب؛ هو من حرم الحياة!!

هذا الشيخ ومن والاه هو من نعت المصلين في المنازل بالمنافقين، ولا

أدري ماذا يقول في صاحب "إحياء علوم الدين"[23] حين اعتزل الناس في آخر سنين عمره فأغلق عليه باب داره و لم يكن يغادرها حتى للصلاة في المسجد؟! هذا الشيخ ومن ناصره هو من اختزل الدين في ابن حنبل وابن تيمية وابن القيم؛ هو من نادى بكراهية اختلاء الأب مع ابنته حتى لا يلعب الشيطان بعقله؛ هو من أفتى بعدم جواز أن تجلس المرأة على "الكنب" لأنها قد تتعرض لمعاشرة الجن؛ هو من أفتى بعدم جواز جلوس المرأة على مقعد جلس عليه رجل قبلها مباشرة لأنه ما زال محتفظا بحرارة جسده مما قد يثيرها.

هذا الشيخ ومن ضرب على منواله هو من أفتى بضرورة تحجيب "المانيكان" لأن هذه التماثيل مثيرة للشهوة؛ هو من قال بكراهية لمس النساء للخضروات والفواكه التي لها هيئة قضيب الرجل كالموز والخيار بدعوى أنها ربما تؤدي إلى إغوائهن؛ هو من أفتى بجواز معاشرة الرجل لزوجته الميتة توا فيما يُسمى "مضاجعة الوداع"؛ هو من أجاز أن تقوم المرأة بترقيع غشاء البكارة؛ هو من نادى بهدم المسجد الحرام وإعادة بناءه بحيث لا يصير فيه خلطة بين الرجال والنساء؛ هو من حرم لبس المرأة لحمالات الصدر لأنها بدعة وطلب منهن لف الأثداء بالخيش؛ هو من نادى بتحطيم آثار الفراعنة بحجة أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حطم الأصنام!!

هذا الشيخ ومن سار على نهجه هو من أفتى بهدم الكنائس في الجزيرة العربية؛ هو من حرم القهوة والقول بدوران الكرة الأرضية وعلم الآثار والجيولوجيا وإهداء الزهور للمرضى وتعلم اللغة الإنجليزية والتصفيق

وتحية العلم والوقوف للسلام الوطني أو دقيقة حداد على أرواح الموتى أو للمعلم والمعلمة؛ هو من قال بعدم جواز قيادة المرأة للسيارة أو ممارستها للرياضة أو دخولها غرفة الدردشة إلا بمحرم؛ هو من حكم على من يضبط المنبه بعد طلوع الشمس بالكفر لأنه يتعمد إضاعة الفجر؛ هو من نادى برضاعة الكبير وأجاز التدخين وتخزين القات في رمضان.

وفي الوقت الذي يتحدث فيه الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون عن الفمتو ثانية والرقائق الدقيقة والألياف الضوئية والنانو تكنولوجي والمريخ والاستنساخ والشريط الوراثي والجينوم مازال المتجمدون والمتحجرون والمتنطعون من المسلمين يتناقشون في دخول المرحاض بالهاتف المحمول إذا كان عليه قرآن؛ وهل يجوز الصلاة على الجريدة؟ وهل يجوز التبول واقفا؟ وهل يجوز بيع القطط والكلاب؟! وهناك من انبرى يؤلف كتبا عن تقصير الجلباب والجهر بالبسملة وأين يضع المصلي يده حين الرفع من الركوع؟!!

فهم الغربيون السر الذي أودعه المولى عز وجل عقل الإنسان فراحوا يعملونه ويجددون ويضيفون، أما نحن فقد انشغلنا بأسئلة وفتاوى لا تسمن ولا تغني من جوع من على شاكلة: "هل كان لآدم سرة؟ هل يجوز أكل لحم الجن؟[24] هل يجوز صيد طائر العنقاء أو هل يجوز أكل لحم الديناصورات!"[25] بعدنا كثيرا وتخلفنا كثيرا لأننا وهبنا حياة لم نحياها وأُعطينا أرضا لم نعمرها ومُنحنا دينا عظيما لم نفهمه؛ وهكذا بقينا خارج المعادلة لأن المستقبل للنابهين لا للعقول الغوغائية الفارغة المُحاصرة التي ضيعت وتُضيع كل يوم بل كل ساعة ودقيقة أمانة التكليف.

3

حاول فادي غير مرة أن يجفف نبع الحب الذي تدفق في قلبه تجاه حسناء، لكنه فشل. كانا جارين وزميلين في المدرسة. صحيح أنه تعين عليهما أن يفترقا في حصص الدين[26]، لكن روحيهما ظلتا متعانقتين... لعبا معا وأكلا معا واستذكرا دروسهما معا. كان من الطبيعي أن تنشأ بينهما هذه العاطفة حتى لو كانا من المجوس أو السيخ أو حتى كفار قريش. الحب لا يستأذن ليدخل القلوب؛ إنه يخترق كل الجدر والحواجز. الحب لا يعرف لغة المنطق ولا يستمع لصوت العقل. ليس للحب مقدمات؛ ليس للحب دين، لكن له إله هو من أوجده؛ هو من أودعه الحشايا والأفئدة.

لكن ما نهاية هذا الحب؟! غالبا ما تهتم المرأة بهذا السؤال أكثر من الرجل لأن معظم الفتيات تتلهفن للحظة التي تتركن فيها بيت العائلة إلى ممالكهن الخاصة بصحبة من أحببن واخترن. صدق المثل الذي يقول

"الست تعشش والراجل يطفش." جلست حسناء ذات مساء تفكر في نهاية ومصير حبها لفادي. كانت مولعة بالروايات وتحب إحسان عبد القدوس. ابتاعت له بمجموعة قصصية بعنوان "حائر بين الحلال والحرام" وبدأت تقرأ قصة "الله محبة" التي- كما يقولون في العامية المصرية- "جت على الجرح" لأنها تتناول قصة حب جمعت بين شاب قبطي وفتاة مسلمة.

في منتصف القصة وحين كانت أم كلثوم تصدح بكلماتها الرائعة "الله محبة، الخير محبة، النور محبة" (72) سحت دموعها وهي تقرأ هذا الحوار الذي دار بين بطلي الحكاية والذي بدأته الفتاة قائلة:

– لقد قلت إننا يجب أن ننتهي إلى حل...

– لنترك الله يختار بيننا فهو صاحب دينك وديني.

– وكيف يختار الله؟!

– لنجرب الحظ فهو أبسط مظاهر حكم القدر.

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضة، وقدمها إليها قائلا:

– اختاري لك وجها.

ابتسمت أو حاولت أن تبتسم، واختارت أحد وجهي قطعة النقود، واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع النقود في يدها قائلا:

– اقذفي بها في الهواء، والوجه الذي يسقط إلى أعلى يغير صاحبه دينه!

وحاولت مرة أخرى أن تبتسم، لكنها لم تستطع، وعندما قذفت بقطعة النقود في الهواء أحست أنها تقذف قلبها، وانحنت تنظر إلى الأرض وقد جحظت عيناها وكتمت أنفاسها، ثم شهقت شهقة خافتة ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها. أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية. وارتبك هو بجانبها، ولم يدر ماذا يقول؟! ثم افتعل ضحكة جافة قائلا:

– هل صدقت؟! لقد كنت أهذر. إنها نكتة أردت أن أسليك بها. لا تأخذيها على محمل الجد. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من المقامرة.

أغلقت حسناء القصة وأخذت نفسا عميقا ثم استعدت للنوم وهي تردد في سرها "تبات نار تصبح رماد."

اعتاد المحبان اللقاء بصفة دورية في الحضر على كوبري المنيا بعيدا عن أعين الناس. في يوم من الأيام وقف فادي ينتظر حسناء وقد اعتصره الحزن. كانت عبارة "الإسلام هو الحل" منتشرة بشكل منتظم على كتل الجسر الخرسانية. نظر فادي إلى العبارة وانتابه نفس الشعور الذي خالج "ماجد عبود جرجس" في رواية يوسف القعيد "قسمة الغرماء" حين وجدها "تتكرر في كل مكان تقصده عيناه، فيشعر وكأن سهما صائبا يخترق عينيه."

راح فادي ينقل ناظريه بين العبارة والمسافر[28] نحو الشمال الذي لم يتوقف يوما عن الجريان حاملا الخير لمصر. ألقى الفراعنة فيه عرائسهم،

ورمى فيه عمرو بن العاص بخطاب الفاروق عمر[29] ولوثه المصريون المحدثون بمخلفاتهم وروث بهائمهم، لكنه ظل يترفع ويتدفق ويعطي بلا حدود. نعم جرت في النيل مياه كثيرة. كم من المصريين شربوا ونهلوا من ماءه الزلال ومنهم من عبد أصناما، ومنهم من عبد الشمس، ومنهم من عرف الله؟! لم يسأل النيل أيًا منهم عن ديانته قبل أن يمد يده ليغترف من ماءه الفياض؟ النيل للجميع، ومن تفاءل بالخير وجده.

كان فادي غارقا في التفكير حين اقتربت منه حسناء قائلة:

– مساء الخير.

لم يرد فادي فنبهته حسناء لوجودها مردفة:

– إيه يا عم هو إحنا داخلين على كنيسة؟!

ابتسم فادي وجذبها من يديها نحو حافة الجسر، فعقبت قائلة:

– إيه خلاص قررت ننتحر ؟!

ضحك فادي من خفة الدم الذي تتمتع به حسناء رغم علمه أنها "كالطير يرقص مذبوحا من الألم". علق قائلا:

– والله فكرة، بس نطي إنتي الأول.

– لا يا عم مش معنى؟!

– يقولك زمان كان فيه اتنين بيحبوا بعض وأهلهم رفضوا يجوزوهم...

– ليه؟!... برضه مسيحي ومسلمة؟!

– لا دي القصة حصلت في إيطاليا... المهم قرروا الانتحار من أعلى الجبل. الشاب المسكين ما قدرشي يشوف حبيبته ميته فرمى نفسه الأول.

– طيب وهي؟

– رجعت البيت واتجوزت وعاشت حياتها.[30]

– كده برضه يا فادي... إنت شايفني كده؟!

– لا بهزر... وبعدين إحنا لو قررنا ننتحر نمسك إيد بعض.

– أيوه يا خويا مانتم عندكم اللي بينتحر عادي ما يخششِ النار، إنما إحنا يموت كافر.

صمتت حسناء لثوان ثم أردفت:

– فادي... إنت مش كنت وعدتني تعلن إسلامك ونسافر أي دولة عربية؟

– آه بس لسه شوية مشاكل.

– الأمور بتتأزم هنا يوم بعد يوم.

– مستعجلة على جوازنا؟!

ردت حسناء بكلمات لتبعد عن نفسها شبهة تعجلها للزواج:

– لا يا حبيبي أنا بس مستخسراك في النار.

– حبك نار... قربك نار... بعدك نار.

– إيه؟! حيلك يا سي عبد الحليم... لا حقيقي أنا بتكلم بجد... شكلك كده خايف من الختان؟

- لا يا حبيبتي أنا مختون... ما إنت عارفه التقاليد في الصعيد.

- طيب إيه المشكلة.

- حاجات بسيطة وتخلص... وبعدين أصل الصلاة عندكوا كتير قوي يا حسناء.

- خمسة كتير؟! دول كانوا هايبقوا خمسين.

- خمسين؟! على أربعة وعشرين ساعة؟! يعني تقريبا كل نص ساعة صلاة! طيب إمتى الواحد يشتغل؟!

- يعني هو في حد بيشتغل أصلا في البلد دي!

- صحيح... وكمان الصوم عندكم صعب قوي.

- لا ده إنت بتتلكك بقى. ما هو لو كنت أنا المسيحية وإنت المسلم كان الموضوع بقى سهل شوية.

- ربنا يعمل الصالح... على الأقل إنت مش محتاج تغير اسمك... يعني الحمد لله إنك ما طلعتش "باخوم" ولا "منقريوس" أو "أرمانيوس".

- يعني هي جت على الاسم؟!

- لا بجد يا فادي الأسماء دي صعبة قوي.

- دي يا ستي أصلها يوناني، بس بقت نادرة اليومين دول.

نظرت حسناء إلى رقبة فادي ثم سألته:

- طيب إيه اللي إنت لابسه ده يا فادي؟! صليب؟

- لا ده القرص المعدني اللي كنا بنلبسه في الجيش.

خلع فادي السلسلة وناولها لحسناء. على قطعة مستطيلة من الألمونيوم دون اسمه وسنه ورقمه العسكري وديانته.

- وده إيه فايدته؟!

- هما أساسا اتنين: واحد بيتلبس في الرقبة وواحد بيتثبت في القايش أو حزام الأفرول. لو قامت حرب ومات الشخص يقدروا يتعرفوا على الجثة من أيهما. الشيء اللي مش قادر أفهمه ليه خانة الديانة؟!

-يمكن علشان الدفن.

- دفن إيه ما كل الشهدا بيتدفنوا مع بعض! .بمناسبة الشهدا تخيلي سمعت شيخ بيقول إن المسيحيين اللي ماتوا في تلاتة وسبعين مش شهدا وأنه لا يترحم عليهم!... إيه رأيك في الموضوع ده؟

- والله أنا أشوف إن المسلم شهيد في ملته والمسيحي شهيد في كنيسته وإن الاتنين شهداء الوطن... ما فيش شك إن الشيخ ده أخطأ بغض النظر عن فحوى فتواه لأنه كسر قلب أم لما قال إن تضحية ابنها ليست محل تقدير أو أنه في النار.

- طيب وموضوع الترحم؟!

- شوف يا فادي... في حاجات ينفع فيها تطيب الخواطر وفي حاجات لازم فيها الصراحة.

-.بمعنى؟

-.بمعنى إن النصارى بيكفروا المسلمين والعكس صحيح.

– بس أنا مش شايفك كده.

– جميل، عارف ليه؟!

– ليه؟

– علشان بتحبني، وهي دي قيمة المحبة... بمعنى إذا اتهمت شخص بالكفر فإنك تقيس الأمور بمنطق الدين، لا بمنطق رحمة الله، فهل تعلم خاتمة من كفرته؟ وإذا كان الله شكر لرجل سقى كلب وآخر رفع غصن شوك من على الأرض، وإذا كان الله يخفف العذاب عن أبي لهب عم الرسول يوم الاثنين لأنه حين بشرته جاريته بمولد النبي أعتقها فلا شك أن لله ميزانا في الحكم على الناس.

– مش فاهم؟! تقصدي إن اللي بيقوم بأعمال خير ويساعد الناس بغض النظر عن دينه سينال جزءا من رحمة الله؟!

– هذه قناعتي... ليس لدي شك في هذا.

ابتسم فادي. أخرجته حسناء من حالة الحزن التي تملكته. تطلع في وجهها الملائكي ثم قال بصوته الشجي:

– فاكرة يا حسناء أول مرة قلتلك إني بحبك.

– آه... وفاكرة كمان أول مرة مسكت إيدي... طيب فاكر في حد الزعف لما كنا بنعمل أشكال من سعف النخيل وخواتم الخوص؟

– أكيد... طيب فاكره لما كنا بنجمع أشعة الشمس في العدسة الإزاز ونحط تحتيها ورقة لغاية ما تولع.

– صدقني كانت أحلى أيام.

– كويسة "صدقني" دي. هو إنت مسيحية و لا إيه؟

– لا يا حبيبي أنا اتعديت منك... و كمان أنا مش بحب لا الكدب و لا الحلفان.

نظر فادي إلى حسناء وكبرت في عينيه. ليس غريبا أنه وقع في حب هذه الفتاة الجميلة والذكية والرائعة. كانت حسناء تفهمه قبل أن يتكلم وتحاوره قبل أن ينطق؛ وكان فادي يرى العالم بعينيها ويحب يومه من أجلها. كم من المرات وقف في مكمورة الفحم وقد اختلط عرقه بالرماد ثم نظر إلى أشجار الصفصاف في الأفق البعيد وقد تخللتها أشعة الشمس وتذكر حسناء وابتسم للحياة. حسناء هي الأمل والحب والحياة؛ حسناء هي الآذان وترانيم عيد الميلاد. حسناء هي رجب وشعبان ورمضان؛ حسناء هي مسري وبرمودة وبرمهات.

تكرر اللقاء بين المحبين المتيمين، ثم تبين لهما أن قصة حبهما مقضي عليها بالفشل، وأن هذا هو "العشق الحرام"[31] أو "العشق الممنوع".[32]
في يوم من الأيام كتب فادي لحسناء:

لا أريدك تشقي

كما يشقى قلبي بعقلي

ويومي بأمسي

لا أريد هذه العيون تبكي

لا أريدك إيزيس التي راحت تلم شتات رجُلها

فأنا هو أوزوريس قطع منثورة
بات من المستحيل تجميعها.

قرر المحبان توديع بعضهما في نفس المكان، وهناك دفن العاشقان حبهما في قلبيهما، ثم انقلبت بهما السيارة الأجرة في طريق العودة ونقلا مع آخرين إلى المستشفى.

4

احتاج فادي نقل دم وكانت فصيلته نادرة نسبيا .تصادف وجود شاب مسلم بصحبة صديق له في المستشفى فتوجه لتلبية نداء الواجب لأنه يحمل نفس الفصيلة.

– ما شاء الله يا أخ عبد الجواد فصيلتك (AB)، دي نادرة جدا.

– امسك الخشب يا أخ مبروك.

– لا يا أخ عبد الجواد ما تقولشي العبارة دي.

– ليه يا شيخ مبروك؟!

– إنت ما تعرفشي إن معناها خشب الصليب.

– بس أنا ما ستخدمتهاش بالمعنى ده.

بعد فترة وجيزة تعرف مبروك على فادي فانتحى بالمتبرع جانبا وأسر له ببضع كلمات:

– ده قبطي يا أخ عبد الجواد!

– طيب وماله؟! قبطي ولا مسلم... أهو إنسان، وقبطي دي معناها مصري[33] كريم العنصرين زي ما بيقولوا[34]، حاجة كده زي الأكسجين والهيدروجين في الماء.

– مش قصدي. الجماعة دول بيرفضوا التبرع بدمهم للمسلمين.

– ليه بقى إن شاء الله؟! دمهم أزرق؟! أنا أعرف مسيحي تبرع بكليته لمسلم.

– تقصد باعها.

– بغض النظر.

– أصل بيقولوا إن جزء من دم النجاة والخلاص للسيد المسيح موجود في دمهم.

– مش معنى المسيح؟! ليه مش سيدنا زكريا أو يحيي أو السبعين نبي اللي قتلوهم اليهود الفجرة؟![35]

– علمي علمك.

لم يلتفت عبد الجواد لكلام مرافقه وتبرع بدمه الذي يحتوي على بلازما وصفائح وكرات حمراء وبيضاء لفادي. في طريقه لباب الخروج أخذ عبد الجواد شربة من زجاجة العصير الرديء قائلا لمبروك:

– فاكر يا شيخ مبروك الأستاذ حبيب مدرس الإنجليزي وصبره علينا وهو بيعلمنا الحروف؟

– أكيد... بصراحة الراجل ده كان رائع. هو صحيح مسيحي بس محترم.

نظر إليه عبد الجواد في دهشة وعجب ثم تابع:

– إنت عارف يا شيخ مبروك إن في نجار قبطي اسمه "باقوم"[36] كان مقيما في مكة وهو من أصلح سقف الكعبة بالأخشاب بعد أن تعرضت للتخريب.[37]

– متى يا أخ عبد الجواد؟!

– قبل الإسلام.

– وكان بيعمل إيه القبطي هناك؟!

– والله علمي علمك... يمكن كان جايله عقد عمل ولا حاجة... ما هو المصريين مكتوب عليهم الشقا طول عمرهم! طيب هاقولك على حاجة مش ها تصدقها.

– قول يا شيخنا.

– الأسبوع اللي فات رحت أدفن واحد معرفة في قرية اسمها "قرارة"...

– عارفها... مركز مغاغة.

– بالضبط... كان فيه واحد بيقرأ القرآن على القبر. صوته عجبني. سألت عنه. قالولي إن اسمه ملاك. استغربت شوية من الاسم. طلع فعلا مسيحي!

– غريبة فعلا!

- لا غريبة ولا حاجة... هي دي مصر... وبعدين يا شيخ مبروك عباءة الدين واسعة وسمحة... إنت مثلا مش اشتغلت في مزارع العنب في إيطاليا؟!

- صحيح... وإيه المشكلة؟! سيدنا علي بن أبي طالب نزح الماء ليهودية مقابل بعض التمر.

- جميل، لكننا نُهينا عن الإقامة في دار الكفر.

- أيوه بس مش دار الحرب... والمسلمين هاجروا الحبشة حيث ملك لا يُظلم عنده أحد... وبعدين الكلام ده لا يستقيم الآن في عصر الدبلوماسية والتجارة والتعاون.

- ممتاز... هو ده اللي اقصده... العاقل من عرف زمانه... والدين يا شيخ مبروك يسر، ولن يغلب عسر يسرين.

- عندك حق.

- نرجع بقى لموضوع الدم... قولي؟! لو إنك محتاج لدم ولا يوجد إلا هذا القبطي ليتبرع لك...

- من غير ما تكمل... أكيد ها قبل، وأكون له من الشاكرين.

- طيب ما رأيك لو أفتاك شخص بحرمانية نقل الدم!

- ليه؟!

- لأنه نجس!

- لا طبعا دي فتوى غير مناسبة للواقع... "ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا[38]".

– هو ده مربط الفرس يا شيخ مبروك... خذ من الدين ما يناسبك طالما أنك لا تنكر ما هو معلوم فيه بالضرورة.

ضُخت دماء عبد الجواد في جسد فادي، لكن يبدو أن الأخير كان يحتاج إلى ما هو أكثر من الدم. أثار وجود الجثتين معا المشاكل بين المسلمين والأقباط في البلدة وأكد ما تردد آنفا من إشاعات حولهما. انتشرت قصص بين قاطنيها من أقباط ومسلمين تحذر من العلاقات الغرامية المشتركة، ولابد أن قصة فادي وحسناء سوف تُضاف إلى هذه الحكايات.

تقول إحدى هذه القصص أن شاب مسلم أحب بنت جارهم المسيحي، وأن الفتاة كانت مغرمة به إلى حد الجنون. طلب الشاب من والديه التقدم لخطبة الفتاة، لكنهما رفضا. استجمع المحب شجاعته وذهب ليخطب الفتاة من جارهم، لكن الأخير طرده من البيت. في النهاية قرر العاشقان الفرار بحبهما. أوقف الشاب السيارة على ربوة مرتفعة وأخذ يقبل فتاته ويعانقها، لكن فرامل اليد تحركت حين كان يعبث بجسمها فانحدرت السيارة وانقلبت بهما. كان الحادث أليما مروعا انتقلا على إثره للعناية المركزة بإحدى المستشفيات. تصادف وجود أحد الشيوخ في المستشفى فتطوع ليلقن المصابين الشهادة. قال الشيخ للفتى:

– قل ورائي يا بني "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله".

– أشهد أن لا إله إلا الله... لكن يا شيخ لقد أحببت فتاة مسيحية وأردت الزواج منها فوقف العالم كله ضدي... فإذا كان الله لم يجمع بيننا في الدنيا فعسى أن يجمعنا في الآخرة. هل ربي غير ربها؟! إذا كان هذا صحيحا فأنا على مذهبها ودينها.

حزن الشيخ لوفاة الشاب بعد هذه الكلمات ودعا الله بحسن الخاتمة، ثم توجه للغرفة الملاصقة حيث ابتدرته الفتاة قائلة:

- يا شيخ... لقد أحببت شابا مسلما، لم يجتمع شملنا في الدنيا فعسى أن يجمعنا مع الرسول وأم المؤمنين مارية بنت شمعون وابنهما إبراهيم[39] أشهد أن لا اله إلا الله واشهد أن محمد رسول الله. ربحت محمدا و لم أخسر المسيح.[40]

أغمض الشيخ عيني الفتاة وخرج من الغرفة مستغربا من صروف الدهر وعجائب الأيام![41] لقد أراد إنسان وإنسانة، مصري ومصرية، أن يعيشا معا، لكن الله لم يجمعهما لا في الدنيا ولا في الآخرة!!! تُذكرنا هذه القصة بفاطمة وجرجس في فيلم "حسن ومرقص"[42] حين نزع كل منهما القناع الذي توارى خلفه ليتحولا إلى "عماد ومريم". تبادلا المواقع، لكن المعادلة ظلت مقلوبة ومعكوسة وتفضي إلى نفس النتيجة... ليس بعد... وليس هنا.[43] الألم ليس له دين وقلوبنا هي أوطاننا.

كم من القصص رويت وكُتبت وأُذيعت وتُليت ودونت عن الوحدة الوطنية والتسامح الديني و"لا إكراه في الدين"[44] و"يحيا الهلال مع الصليب"، وعن ضرورة أن يحتكم كُل إلى شريعته وعن خصوصية العلاقة بين المسلمين والأقباط... تدفقت هذه القصص بشكل مبالغ فيه حتى خلقت وعيا مضادا بأن العكس هو الصحيح. المسلمون والمسيحيون في مصر ببساطة أشبه بالتوأم الملتصق من الظهر.[45] كلاهما يشترك مع الآخر؛ كلاهما يحتاج إلى الآخر؛ كلاهما لا يستغنى عن الآخر؛ كلاهما يتأفف من الآخر؛ كلاهما يشد الآخر إلى الخلف؛ كلاهما يعيقه الآخر...

كلاهما يدرك أن حياته مرتبطة بوجود الآخر.

تتحدث مع المسيحيين فيقولون لك أنهم مُضطهدين، ويعددون حوادث الاعتداء على كنائسهم وصوامعهم وأديرتهم وقلاليهم وممتلكاتهم في حلوان والخانكة والزاوية الحمراء والناصرية والكشح وصول وفرشوط وديروط وإطفيح ودرنكة والماريناب والعمرانية والزيتون وإمبابة والعامرية، ويرفعون صوتهم بالغناء:

اقتل بطرس واقتل مينا
اللي إخوتهم ماتوا في سينا
واللي ولادهم رقصوا في فرحك
واللي في ميّتم بيعزّينا [46]

يخبرك الأقباط أن رسائل تهديد بالقتل تصلهم بين الحين والآخر؛ وأن عددا كبيرا منهم هُجروا داخل مصر أو هاجروا منها؛ وأنهم لا يحصلون على وظائف مناسبة ولا يحق لهم التقدم لبعضها؛ وأنهم يميلون للتقوقع على أنفسهم درءا للمشاكل؛[47] وأنهم لا يبنون كنائسهم بحرية ويصلون سرا[48]؛ وأنهم لا يحصلون على أجازة رسمية في عيد القيامة[49]؛ وأنهم يُنعتون بعبارات متدنية مثل "كوفتس"[50] و"عظمة زرقاء"[51] و"أربعة ريشة".[52]

يخبرك الأقباط أيضا أن تاريخ مصر القبطية لا يُدرس! وأنهم فاقدون للأهلية ومواطنون من الدرجة الثانية رغم أنهم أصحاب البلد الأصليين

وأن المسلمين ضيوف في مصرا[53] شيء عجيب حقا! يقولون في أمثال الإنجليز أن السمك والضيوف تخرج رائحتهم بعد ثلاثة أيام[54]؛ ويقولون في الأمثال العامية المصرية "يا بخت من زار وخفف." هذه أول مرة نسمع عن ضيف يقيم في دار مضيفه أكثر من ألف وأربعمائة سنة! ثم لماذا الافتراض بأن كل المسلمين في مصر من عرب الجزيرة؟! الحقيقة أن نسبة كبيرة من مسلمي مصر لم يغيروا حتى دارهم؛ وكل ما في الأمر أنهم غيروا دينهم. فعلها المصريون عشرات المرات على مدار تاريخهم، ما الجديد؟!

تتحدث مع المسلمين فيقولون لك أن الحكومة تدلل الأقباط وأن الكنيسة دولة داخل الدولة وأن أسوار الأديرة أطول من أسوار القصور الرئاسية[55]؛ وأن العديد من المخالفات تتم داخل هذه الأديرة؛ وأن الأقباط يريدون أن يحصلوا على امتيازات و"محاكم مختلطة"؛ وأنهم يحبون أن يبدوا دائما كالحمل الوديع المغلوب على أمره والذي يُساق إلى المذبح مُكرها، بل يستمرؤون الإحساس بالظلم والاضطهاد منذ عهد دقلدنيوس[56] ليكسبوا عطف الآخرين؛ وأنهم يسيطرون على تجارة الذهب ومفاصل الاقتصاد؛ وأنهم ينتهجون مبدأ "دكتاتورية الأقلية"؛ وأن الكنيسة تمتلك المليارات؛ وأنهم يتكتلون في وظائف معينة ولا يسمحون للمسلمين بالعمل معهم إلا في حالات الضرورة القصوى.

يرى المسلمون أن الأقباط يضخمون في أعدادهم[57] ويستخدمون عبارات مثل "شعب الكنيسة" و"الأمة القبطية"[58] و"المسألة القبطية" بل و"اللغة القبطية"[59] دلالة على أنهم يريدون الانفصال؛ كما أنهم يستقوون

بالخارج؛[60] وأن لديهم مشروعا انفصاليا بدأ في مرحلة مبكرة ففي سنوات حكم عبد الناصر - كما استقر في الفلكلور الشعبي- طُرح هذا الموضوع حين قابل وفد قبطي يمثل صعيد مصر عبد الناصر مطالبين بالحكم الذاتي فأحالهم إلى "جمال سالم" أحد أعضاء مجلس الثورة والمعروف بسطوته وقلة حلمه وصبره. هدد جمال سالم الوفد القبطي بأن الحكومة المصرية سوف تتعامل بمنتهى القسوة والشدة إذا تم طرح هذا الموضوع داخل الكنيسة أو خارجها ثم صرفهم. استقل الوفد القبطي القطار عائدين إلى أسيوط فانقلب بهم في ظروف مريبة ولقي أفراد الوفد مصرعهم.[61]

تتحدث مع المسئولين فيقولون لك بابتسامة حمقاء وخطاب غث سخيف بأنه لا توجد مشكلة؛ وأن الإستشراق هو من نثر بذور الفرقة والشقاق من منطلق "فرق تسد"؛ وأن المسلمين والمسيحيين "إيد واحدة"[62] ونسيج واحد راق حتى لغاندي؛[63] وأن اللورد كرومر لم يجد فرق بين المسلم والقبطي غير أن الأول يصلي في مسجد والثاني يصلي في كنيسة؛ وأن الصهيونية والماسونية والقوى الاستعمارية والأصابع الخارجية هي من يلعب على ملف الوحدة الوطنية... وهكذا ندفن رؤوسنا في الرمال ونترك الجروح تتقيح بل ونضع فيها الملح ظنا منا أنه يطيبها، لكنها تزداد تقرحا.

الحقيقة أن الاحتقان الطائفي موجود في مصر منذ أمد طويل، لكنه يتقد ويخمد ويتجدد ويسكن على مدار أكثر من أربعة عشر قرنا؛ الحقيقة أن من الأقباط من تعرض ويتعرض للاضطهاد أو قل عدم التسامح ليس على طريقة الحاكم بأمر الله أو محمد ابن قلاوون، لكن بأساليب أخرى

متنوعة تتراوح بين النفور والاعتداء على الأديرة[64] وتفجير الكنائس[65] أيا كان الشخص الذي يقف وراءها يستوي في ذلك إذا كان عاقلا أو مختلا وسواء كانت مؤامرة تحركها إسرائيل أو قلة مندسة أو طرف ثالث خارجي من نوعية "اللهو الخفي".

الحقيقة أن من المسلمين من خذل النبي حين أوصى عليه الصلاة والسلام بالقبط. الحقيقة أن من المسلمين من خالف سلوك الفاروق حين أعطى السوط للقبطي ليضرب عمرو وابنه قائلا للأخير "متى استعبدتم الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحرارا." الحقيقة أن رد فعل المسلمين يعتريه الكثير من المبالغة في أمور عديدة. ينتقدون سويسرا لأنها منعت إقامة المآذن. حسن... سويسرا ليست من بلاد الإسلام ومن الخطأ اختزال الإسلام في المئذنة، ثم أن من المسلمين أنفسهم من يمنع إقامة الكنائس في بلاد عديدة. ينتقدون فرنسا لأنها حظرت النقاب. حسن... فرنسا ليست من بلاد الإسلام ومن الخطأ اختزال الإسلام في النقاب، ثم أن من المنتقبات من يتعرضن للتضييق في العديد من الأقطار الإسلامية.

الحقيقة أن من الأقباط من هو ممعن في المغالاة.[66] الحقيقة أن منهم رأى في قدوم العرب غزوا وليس نصرا واحتلالا وليس فتحا. صحيح أنهم تعرضوا للاضطهاد قبل قدوم عمرو على يد الوثنيين ثم على يد المسيحيين البيزنطيين المالكيين[67]، وصحيح أن عمرو بن العاص أكرم الأنبا بنيامين ورد اعتباره[68]، لكن سرعان ما أحس الأقباط بخطورة وجود العرب على أراضيهم خاصة حين تركوا الصحاري إلى الوادي والدلتا؛ الحقيقة أن من الأقباط من لم يرحب بوجود العرب المسلمين أصلا؛ الحقيقة أن

منهم من تمرد وثار ضدهم من عهد عمرو ابن العاص مرورا بعمر بن عبد العزيز[69] والمأمون.[70]

الحقيقة أن من القبط من يبغض المسلمين رغم أنه يؤمن بالمحبة! الحقيقة أن من القبط من سعى لحرق المساجد كما شهد المقريزي: "... لم يبرح السلطان مكانه حتى وفاه خبر بأن النار علقت بجامع ابن طولون والقلعة وقُبض على ثلاثة من الأقباط وأنه باستنطاقهم اعترفوا جهارا أنهم من العصابة التي آلت على نفسها إحراق مصر والفسطاط."[71] الحقيقة أن من الأقباط من حارب مع الحملة الفرنسية ضد المصريين[72] الحقيقة أن مقولة القس مرقص سرجيوس "لو أن الإنجليز متمسكون ببقائهم في مصر بحجة حماية الأقباط فليمت القبط ويحيا المسلمون أحرارا" تدخل في باب الإنشاء ليس إلا؛ الحقيقة أن تصريح "عريان سعيد" عقب محاولته الفاشلة لقتل يوسف وهبة بأنه سعى لاغتيال الباشا حتى لا يقتله مسلم فتشتعل الفتنة الطائفية هو مبالغة خطابية لأن إبراهيم الورداني سبق وقتل بطرس غالي عام 1910.[73] الحقيقة أن من الأقباط من يرى أن رفض اقتراح سعد زغلول بأن ينص دستور 23 على نسبة ثابتة للأقباط بمجلس الأمة كان خطأ جسيما؛ الحقيقة أن تصريح الأقباط بأنهم سيحجون إلى القدس مع إخوانهم المسلمين هو من باب "برو العتب" لأنهم أيضا غير مُرحب بهم من الإسرائيليين، كما أن العلاقة بينهما ليست على ما يرام لأسباب تاريخية معلومة للجميع.[74]

الحقيقة أن جزءًا كبير من الأقباط يأخذون الاضطهاد الديني وحماية الأقليات ذريعة للذهاب إلى أوروبا وأمريكا والعيش هناك. الحقيقة أن

الأسماء اللامعة مثل ويصا واصف وسينوت حنا ومكرم عبيد[75] وفخري عبد النور واستير فانوس وفؤاد أندراوس وميلاد حنا ويونان لبيب رزق ونصر لوزا الأسيوطي ولويس عوض وتادرس وهبي وهبه الطهطاوي[76] وروفائيل نخلة وشفيق متري سدراك وجورج بهجوري وجورج إسحاق ويعقوب الشاروني ومجدي يعقوب وغيرهم لم يناضلوا بالقول والقلم وفرشاة الرسم والبندقية والمشرط من أجل عيون المسلمين، بل من أجل مصر... من أجل هذا الوطن الذي لا نعيش فيه بل يعيش فينا.[77]

نعم من أجل مصر... وهذا هو المنشود. الله وحده يملك الحقيقة المطلقة. لا أطلب محبتك، لكن أطلب منك أن تحافظ على الرباط الذي بيننا وأن تضع يدك في يدي من أجل وطن عرف أن هناك إله ينظم حركة الكون قبل اليهودية والمسيحية والإسلام. ليس ضروريا أن نحب بعضنا، لكن على الأقل يجب أن نحب وطننا؛ وصدق الشيخ محمد عبد المطلب حين صاح أثناء ثورة 19: "كلانا على دين هو به مؤمن/ ولكن خذلان البلاد هو الكفر".

فبدلا من احتدام الجدل حول قضية الصلب والتناول[78] دعونا نعالج مشاكل حي الصليبة[79] وتناول المخدرات؛ وبدلا من الحديث عن أسبوع الآلام دعونا نرتب لأسبوع الشجرة أو الدفاع المدني أو المرور؛ وبدلا من الأخذ والرد في قضية التثليث دعونا نناقش الثالوث المدمر: الفقر والجهل والمرض؛ وبدلا من انقضاء السنين في الشجار حول طبيعة المسيح دعونا نتكلم عن طبيعة أرض الفيروز وكيفية الاستفادة منها؛ وبدلا من إنكار وتأكيد ظهور العذراء وتجليها دعونا نعالج ظهور الأمراض الجديدة والمواد

المسرطنة في هوائنا ومائنا وطعامنا؛ وبدلا من الخوض في معجزة نقل جبل المقطم على يد القديس سمعان الخراز[80]، دعونا نجد سبيلا لنقل الصخور التي توشك أن تقع من حافة هذا الجبل على رؤوس ساكنيه؛ وبدلا من العراك حول هوية الذبيح وهل هو إسحاق أم إسماعيل عليهما السلام؟ دعونا نفكر في إقامة مذابح وسلخانات حديثة؛ وبدلا من الحديث حول عودة المسيح دعونا نتحدث عن عودة أسرانا من السجون الإسرائيلية؛ وبدلا من التكهن حول وجود أسلحة في سراديب أسفل الكنائس دعونا نجمع السلاح الموجود في الصعيد ومع المطاريد والبلطجية والخارجين على القانون؛ وبدلا من الشقاق حول نصوص إنجيل برنابا دعونا نتحدث عن كتب القراءة ونصوص المطالعة لأولادنا في المدارس؛ وبدلا من النقاش حول مناظرات أحمد ديدات دعونا نناقش نظريات أحمد زويل؛ وبدلا من انقسامنا إلى الإخوان المسلمين والشبان المسيحيين دعونا نتوحد تحت شعار "الإخوان المصريون" أو "الشبان المصريون"... الخلاصة بدلا من أن نكون أقباط مسيحيين أو أقباط مسلمين، ما رأيكم أن نكون أقباط مصريين؟ وأن تكون مصر المعبد والمتحف والمسجد والكنيسة وسجادة الصلاة والإنجيل وكتاب الموتى.

الحقيقة أن كثيرًا من المسلمين والأقباط لا يضعون الوطن فوق العنصر والفئة والطائفة. الحقيقة أن الأزهر والكنيسة قد خذلا الشعب في ثورة 25 يناير. الحقيقة أن كلاهما لا يقوم بما هو مطلوب منه لوئد الفتن بأسلوب علمي وعملي. دعونا نسأل أنفسنا سؤالا: "لماذا لا تستعر نيران الفتنة في الأردن أو فلسطين مثلا بنفس الكيفية وعلى نفس الوتيرة التي تحدث في

مصر؟!" الإجابة ببساطة لأن هناك من ينزع الفتيل في الوقت المناسب، ناهيك عن أن انصراف الناس للقضية الأكبر والهم الأعظم وهو مدافعة المحتل ومناوئة اليهود جعلهم يترفعون عن الصغائر؛ وبعبارة أخرى لقد وحدهم الألم.

أقام المسلمون مسجدا في هذه الديار يحمل اسم عيسى عليه السلام. لا يدعو ذلك للكثير من العجب فعليه السلام من أولي العزم من الرسل والمسلمون يحبونه حبا شديدا. الدهشة في الواقع تأتي من قصة أخرى مفادها أن شيخ المسجد تأخر عن رفع آذان المغرب في أحد أيام رمضان فدق القسيس النواقيس ليعلم الناس بانقضاء النهار!

إن قصة "فادي وحسناء" ليست الوحيدة من نوعها، ولن تكون الأخيرة؛ ثم ماذا أضافت زايدة بنت المعتمد بن عباد[81] والملكة نازلي والأميرتان فريال وفتحية وناهد متولي وتريزا إبراهيم وغيرهن للإسلام أو المسيحية؟! إن هناك ملايين المسلمين والمسيحيين الذين لا يعرفون حتى أين تقع مكة أو القدس! هناك من المسلمين من مكث في السعودية أكثر من عشر سنوات و لم يحج! وهناك من النصارى من يعتقد أن المسيح تزوج مريم المجدلية وأنه عليه السلام له ذرية [82]!!

إن حرية العقيدة في مصر مكفولة وليست مكفولة، والحساسيات والجدليات التي تكتنف إشكالية من هداه الله إلى الإسلام أو قبل السيد المسيح في حياته لن تُحل بين يوم وليلة، بل لن تُحل مطلقا. ثم أن نجلاء الإمام ومروة فكري ووفاء قسطنطين وكاميليا شحاته وماريان عياد وريم ميخائيل لسن أول من تنصرن أو أسلمن. تكمن المشكلة دائما في التعامل

البطيء والمرتعش مع الأزمة، وانتظار أن يتدخل رأس الدولة شخصيا ليفعل القانون!

نعم... ما لا يعرفه الكثيرون أن محمد علي باشا تدخل شخصيا في إحدى هذه الوقائع عام 1844 بعد استياء قناصل الدول الغربية في الإسكندرية وتهديد دولهم بإرسال سفن حربية إلى الثغور المصرية . حدث هذا عندما تحرش بعض الصبية بقبطي يُدعى "سيدهم بشاي" وهو في طريقه إلى الكنيسة فسبوه وشتموه وضربوه وقذفوه بالحجارة. تصادف مرور المفتي فأخبروه أن الرجل القبطي أهان الإسلام ورسوله. أحال المفتي "سيدهم" للمحكمة متوعدا إياه بالقتل. حكمت المحكمة على القبطي بخمسمائة جلدة وتُرك للعامة فسحلوه ونتفوا لحيته. حين أمر محمد علي بالتحقيق في الواقعة جُرد المحافظ "خليل أغا" من منصبه وكذلك القاضي والمفتي وغيرهم.

نعم... ما لا يعرفه الكثيرون أن الرئيس الأمريكي أبراهام لنكون تدخل شخصيا لدى الخديوي سعيد في إحدى هذه القضايا كما تقول أوراق القضية المحفوظة في المكتبة القانونية بجامعة هارفارد.[83] وقعت القصة في "ساحل سيلين"[84] بمحافظة أسيوط في الثالث والعشرين من يوليو لعام 1862، السابع عشر من شهر المحرم لعام 1271 هجرية. بطلة القصة هي فاطمة التي أعلنت إسلامها أمام قاضي "أبو تيج" ثم تزوجت من "علي حمادي" وأنجبت منه طفلة. بعد خمس سنوات من زواجهما قررت فاطمة العودة إلى المسيحية. شجع أقارب حمادي الرجل على قتل زوجته قائلين أن الصحابي "أبو عبيدة عامر بن الجراح" قتل أباه في غزوة

بدر، فهربت فاطمة بابنتها إلى بندر أسيوط، وهناك قابلت رجل سوري يُدعى "فارس منصور الحكيم" كان يبيع الكتب المسيحية في مكتبة إرسالية التبشير أو التنصير الأمريكية ويتمتع بحماية الأمريكيين. ساعد "فارس" فاطمة على الاختباء في الكنيسة فوكلته للدفاع عنها.

في المحكمة الشرعية وقف فارس يدافع عن حرية المعتقد أمام قاضي أسيوط ومفتيها وبعض علماء الأزهر ومجموعة من الحاضرين وكلهم يعتقد أن فاطمة مرتدة. وجد الحاضرون أن دفاع فارس إهانة للدين الإسلامي فانبروا بلا استثناء بالبصق عليه ثم علقوه في "الفلكة" وضربوه وركلوه وحبسوه وسبوه صائحين "اللي يحب النبي يضرب" و"خلي المسيح ينقذك" "وعشم حنا يخش الجنة"!!! انتهت القضية بعزل القاضي والمفتي وحبس ثلاثة عشر شخصا سنة وتغريمهم مجتمعين ما يعادل خمسة آلاف دولار أمريكي.

ورغم ذلك فلا نستطيع أن ننكر وجود علاقات طيبة على المستوى الشخصي بين العديد من المسلمين والمسيحيين في مصر. يكفي أن تعلم أن مسيحي هو "قليني باشا فهمي" بنى مسجدا في قريته، وأن هناك من المسلمين من تبرع بالشموع والقناديل والفرش للكنائس. يُحكى أن نجيب الريحاني لم يكن يعلم أن شريكه "بديع خيري" مسلم إلى أن توفيت والدة الأخير وذهب ليعزيه! ورغم ما في هذه القصة من مبالغة وعجب فإن تفسيرها -إن صحت- يأتي على وجهين: إما أن الناس في الماضي لم يكونوا متدينين بالقدر الكاف أو أن عقولهم كانت على درجة كبيرة من الرشد بحيث تشربت كل التباينات وأدركت أن الدين لله وأن الوطن

والمسرح والسينما والأدب والرياضة والبيع والشراء للجميع.

هناك من قصص التآلف ما لا تتسع الصفحات لها ولا يكفي المداد لسردها[85]. تبرز بين كل هذا الموروث قصة تسترعي الانتباه والاهتمام. هذه القصة أبلغ من حضور المسئولين لقداس عيد الميلاد أو الأزهريين لمائدة إفطار في الكرازة المرقصية أو صورة لمئذنة تلتصق ببرج كنيسة أو لعلم مصر وقد مُد بينهما أو لفضيلة الشيخ يعانق قدس أبونا في بيت العائلة[86] و"صافي يا لبن، حليب يا قشطه" أو أغنية "جرجس وعم نصر".[87]

يقول راوي القصة أن عقب ولادته نضب اللبن في صدر أمه فدفعت به إلى جارتها المسيحية التي أرضعته مع ابنها فوزي... وهكذا أصبح عبد التواب[88] وفوزي أخوين في الرضاعة تماما كما اختلطت دماء الأقباط والمسلمين في الزود عن أرض الكنانة ودرأ الشر عنها. نفس القصة يحكيها شخص آخر يبدو أنه أحب لبن المرأة التي أرضعته فتنصر. يقول: "... عندما كنت صغيرا مرضت مرضا شديدا رفضت عل إثره الرضاعة من ثدي أمي... وذات يوم جاءت جارتنا المسيحية التي تدعى "أم وليم" لكي تسأل عني فأخبرتها أمي بما حدث، فقالت لها: أنا كما تعلمين ولدت وليم في نفس اليوم الذي ولدت فيه مصطفى، واللبن عندي كثير، ولن يؤثر على وليم لو أني أرضعت مصطفى... وقف لسان أمي عن الكلام وكادت أن تصعق عندما رأت فمي يمتد إلى ثدي أم وليم ويلتقمه ورضعت حتى شبعت، بعدها أخذتني غفوة من النوم على صدرها. فرحت أمي كثيرا وأخذت تقبل أم وليم في وجهها."[89] من المدهش أن نعلم أيضا في

هذا الشأن أن "نظير جيد روفائيل" المعروف باسم "البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقصية"[90] ماتت أمه السيدة "بلمسم" بعد مولده بثلاثة أيام فأرضعته سيدات قرية "سلام"[91] المسيحيات والمسلمات وخاصة الحاجة "زينب سيد درويش" ليصبح أخا في الرضاعة لابنها "زهرى حمدان".

على أي حال، قصة فادي وحسناء ليست جديدة، ولا هي الأخيرة. هي قصة رواية "لقاء هناك"[92] التي يقع فيها عباس في حب جارتهم "إيفون". هي قصة فيلم "الشيخ حسن"[93] الذي تزوج من لويزا المسيحية ليواجه صعوبات من المسلمين والنصارى على حد سواء. سعى الجميع للتفريق بينهما وانتهى الفيلم بموت لويزا بعد أن أنجبت من الشيخ حسن طفلا يرمز إلى الوحدة والاندماج والانصهار والأمل في مستقبل مختلف.

كان لدينا في مصر "حسن ومرقص وكوهين"[94] وكان لدينا "فاطمة وماريكا وراشيل".[95] رحل عنا كوهين وراشيل. لا بأس ربما أرادا أيضا الرحيل، لكن علينا أن نحرص على من تبقى. ذهب فادي بقصته، لكن عطيات هي من تدفع الثمن الآن.

5

وعطيات هذه شابة فارعة الطول موفورة الصحة. جمعت بشرتها بين لون الخمر والحنطة. شعرها أسود مجعد وأنفها طويل ورفيع من النوعية التي يطلق عليها "سلة سيف". خداها ممتلآن وشفتاها غليظتان. كانت عاقدة الحاجبين، سوداء العينين، طويلة الأهداب. لم تكن فائقة الجمال ونشأت كالبطة الدميمة كما يقول الإنجليز Ugly Duckling، لكن وجهها كان مريحا وجسمها ملفوفا وهذا هو سر إغرائها.

أمضت عطيات بعض الوقت في محطة قطارات العاصمة. التصقت بأحد الحوائط وتمنت لو اختبأت داخله. كان المشهد من حولها مخيفا. لم يستطع عقلها البسيط أن يفهم ما سر وجود كل هؤلاء البشر؟! ولماذا يجرون؟! وأين يذهبون؟! حاولت الخروج من المحطة، لكنها شعرت

بالرهبة فعادت أدراجها. ظلت جالسة على الأرض ومتهيبة من الموقف حتى استجمعت شجاعتها وانطلقت مع الزحام.

باتت عطيات ليلتها الأولى في "بنسيون" بالناحية البحرية من كوبري الليمون. من حسن الحظ أنها أخذت معها المال الذي كسبته من بيع البيض في القرية. خلعت عطيات جلبابها فتنفس نهداها الصعداء وجاهدا ليتحررا من قيدهما. ما أجمل صدر عطيات وما أشهى هذا الصليب الفضي الصغير بين ثدييها! يبدو أن عطيات هي من كتب لها جورج متى[96] من قرابة قرن مضى:

لما رأيت صليبها يزهو على الصدر الفسيح[97]
ناديت من ألم الجوى ياليتني كنت المسيح.

لكن عطيات لم تكن كاثوليكية فليس على صليبها مجسم للسيد المسيح، وعلى أي حال فقد وجدت عطيات من الأصوب أن تخلع الصليب. لم يكن البنسيون مريحا. كانت الحجرة لا تُغلق إلا بمسمار دُق في إطار بابها وينكفئ نحوه فيغلقه! أحست عطيات أن ثمة من يتلصص عليها فعادت لارتداء ملابسها ولبست "بنطلون" زيادة في الحرص. سمعت شخصين يتحدثان في الحجرة المجاورة. لم تستطع النوم بسبب صوتهما المرتفع. أحست أنها تجلس معهما في الغرفة.

– سمعت آخر نكتة؟ بيقولك مرة واحد مسلم وواحد مسيحي..[98]

– قديمة... ههههه.

– طيب بيقولك السادات كان في الطيارة مع البابا وشيخ الأزهر، وكان واحد منهم لازم ينط منها علشان الحمولة زايدة.

– برضه قديمة. مش لما سأل شيخ الأزهر عن عدد سكان مصر وطلب من البابا يقول أسمائهم؟!

– آه... طيب اسمع دي... بيقولك كان فيه قسيس كل يوم عسكري المرور ينشه مخالفة بدون سبب. الراجل زهق فباع العربية واشترى موتسكل. برضه وقفه عسكري المرور وقاله: أنت مش خايف تركب الموتسكل والوقت ليل. رد القسيس عليه: أنا مش لوحدي؛ معايا الآب والابن والروح القدس. قام العسكري قاله: وكمان مركب تلاتة معاك وراح محرر له مخالفة!"

بعد أن قهقها لدقيقة أو يزيد عرج الشخص الآخر بالكلام على شخص اسمه "زخاري". يبدو أنه شريكهما في مشروع لتربية الخنازير. أخذ الرجل يسبه بأقذع الشتائم ثم ختم عبارته قائلا: "ده ابن صليب... يا أخي الجماعة دول مش بستريحلهم أبدا، ولا بحب أكلهم... وبعرفهم من شكلهم وريحتهم، حاجة كده زي ريحة الزيت"!![99] راحت عطيات تشم جلبابها وتتعجب من قدرة بعض الناس على الكره وتجرؤهم على الله حين يسبون دين من الديانات الإبراهيمية!!

في الصباح أخذت عطيات الكيس البلاستيك الذي خرجت به من الصعيد وانطلقت لتبحث عن عمل. كان الشارع الذي يقع به البنسيون يعج بالمطاعم والمتاجر. وجدت عطيات عملا في محل "كوافير" بنهاية

الشارع لمدة أسبوع فقط مستبدلة إحدى العاملات التي حدثت لها ظروف طارئة أو هكذا قالت لها صاحبة المحل. وافقت ريثما تجد عملا آخر وحتى تتمكن من تسديد أجرة البنسيون الذي عادت له مرغمة.

اعتادت إجلال صاحبة المحل أن تُشغل أي شابة تأتي للسؤال عن عمل لمدة أسبوع مختلقة قصة العاملة التي حدثت لها ظروف طارئة. خلال الأسبوع تبدأ العاملات الأخريات في الحديث مع القادمة الجديدة ومعرفة ظروفها ثم إقناعها بالتدريج للانخراط في أعمال منافية للآداب في الشقة التي تقع مباشرة فوق الكوافير والتي تمتلكها إجلال وتخصصها كصالون تجميل. عملت عطيات في اليومين الأولين في قسم تصفيف الشعر بالمحل وانحصر دورها في مساعدة العاملات الأخريات في أعمالهن ومناولتهن عدة الشغل.

كانت أول زبونة تشارك عطيات في تجميلها وتزيينها فتاة شقراء في ثياب العرس. كان فستانها رائعا. حين حضر عريسها ليصطحبها داعبت السعادة وجهها، فرحة تخرج من القلب، فرحة تستحقها كل فتاة في هذا الكون. غبطتها عطيات وتمنت هذه الفرحة لنفسها.

رأت عطيات خلف ستائر هذا المحل وسمعت ما لم تتخيله في حياتها. في اليوم الخامس لها أقنعتها سوسن، زميلتها في المحل أن تهتم بشكلها وتغير من تسريحة شعرها حتى يشتهيها الرجال وعرضت عليها أن تقدم لها هذه الخدمة مجانا. صعدا معا عن طريق السلم الداخلي إلى الشقة العلوية. خلعت عطيات ثوبها وباشرت سوسن حف شعر جسمها

وتخفيـف حاجبيهـا. بعـد ساعة أو يزيـد من العبـث في جسمها وقفت عطيات أمام المرآة فوجدت إنسانة أخرى. ابيض جسمها وأشرق وجهها. لديهـا حلمتان مسطحتـان أو منسحبتـان للداخـل[100]. لا تدري كيف سيمكنها إرضاع أطفالها في المستقبل؟!

أحست عطيات بسخونة واحمرار في جسدها كله نتيجة نزع الشعر منه، لكنها شعرت أيضا بالرغبة في الرقص. تحب الرقص كثيرا وتعشق فيلم "شفيقة القبطية".[101] تملكت عطيات الرغبة في استعراض ما لديها أمام رجل تحس ناحيته بالحب قبل أن ينمو شعر جسمها ويلتصق حاجباها من جديد، وقبل أن تغسل شعر رأسها فيفقد نعومته ولمعانه. ما أقسى أن ينمو شعر المرأة في خديها وصدرها ومناطق أخرى من جسدها فتتحول إلى قنفذ أو قرد! ما أصعب أن تتزوج المرأة من رجل لا يحب نمو هذا الشعر فتُضطر إلى خوض معاناة إزالته يوما بعد يوم! ما أصعب أن تُقنع امرأة ترقق حاجبيها بأن هذا يدخل في باب النمص وهي تعلم أن زوجها سيزهد فيها ويعاف منظرها إن لم تفعل!

أسـرت لهـا سوسن بصـوت يشبـه حفيف الأفعـى بأن مـن الرجال والنسـاء من يحب المرأة المشعـرة وأن منهم ومنهن من يطلب منها وصف أجسام النسـاء اللاتي تباشر تزيينهن! لم تفهم عطيات ما رمت إليه سوسن فاضطـرت الأخيرة إلى أن تفاتحها في الأمر بكل جـرأة. أحست عطيات بالخـوف فارتدت ملابسهـا وهي تتلفت يمينا ويسارا ثـم وعدت سوسن أن تـرد عليهـا في صباح اليوم التـالي. أعطتها إجـلال خمسين جنيها في هـذا اليوم وزجاجة عطـر صغيرة. في البنسيـون أفرغت عطيات زجاجة

العطـر في دورة المياه وانهارت على الأرض باكية. تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

في صباح اليوم التالي بدأت عطيات في البحث عن عمل من جديد. أشار عليها صاحب مقهى أن تراجع شركة للأمن والحراسة في الشارع الخلفي. جلست عطيات في مقر الشركة تراقب حوض الأسماك وتنتظر مقابلة المسئول. فعلا بعد ساعتين كانت عطيات تلبس زي الشركة وتمسح أرضية أحد المستوصفات في منطقة "مسرة" بشبرا بمرتب يصل إلى مائتي جنيه شهريا.

استبشرت عطيات باسم "مسرة" وتذكرت هذه الكلمات التي كانت أول ما حفظت من الإنجيل: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة." كانت المنطقة تعج بالكنائس والنصارى. بعد استلامها العمل في المستوصف بيومين داهمت شرطة الآداب الكوافير الذي عملت به. تبين أن مالكة المحل تدير شبكة للدعارة. أنقذها الله في الوقت المناسب وجنبها فضيحة مجلجلة.

اجتهدت عطيات في عملها الجديد فنالت رضا المدير الإداري. الحقيقة أنها تحب النظافة بشكل كبير، كما أنها نظيفة على المستوى الشخصي، ونتيجة لذلك تم نقلها لمغسلة المستوصف، كما سمح لها المدير بالنوم في المغسلة لتوفير أجرة البنسيون. باتت عطيات ليلتها الأولى في المغسلة تبكي حالها. كانت حجرة المغسلة دافئة فنامت وسط المفارش والملاءات وأكياس الوسائد.

كانت طبلة الأذن اليمنى لعطيات بها ثقب، وكانت عطيات تتجنب دخول المياه فيها. ولأنها تنام على جانبها الأيسر فإنها عادة تفقد الإحساس بما حولها. في صباح يوم من الأيام شعرت بجسم ثقيل فوقها فانتبهت مذعورة لتجد شوربجي زميلها في المغسلة يرقد فوقها. أرادت أن تصرخ، لكنها خافت من الفضيحة. دفعت شوربجي جانبا وهي تسبه وتلعنه. قام عنها وقد بلل سرواله فخلعه في تبجح وألقى به في الغسالة وأدارها ثم ارتدى لبس الشغل. أحست عطيات بالاشمئزاز والقرف والرغبة في التقيؤ.

اشترت عطيات "ترباسا" وأصبحت تغلق الباب عليها وهي نائمة. انتابها الخوف بشكل كبير. لم تستحم منذ ثلاثة أيام. تخاف أن يكون هناك ثمة من يختلس النظر أو يصورها أو خلافه. عندما تكررت مضايقات شوربجي قررت عطيات ترك المستوصف والطلب من شركة النظافة أن تبحث لها عن موقع آخر. في مساء اليوم الذي أخذت فيه عطيات هذا القرار دوت صرخة في المستوصف.

هرع طاقم "النوبتجية" الليلية إلى قسم النساء حيث تبين أن رضيعا قد اختفى من غرفة حديثي الولادة. في الصباح كانت عطيات ومسئول الأمن وطاقم التمريض والدكتور المناوب في النيابة. بعد سين وجيم وكثير من التحري تم القبض على شوربجي.

تبين أنه هو من تسلل في غفلة من الأمن إلى غرفة الأطفال وسرق الوليد. تبين أيضا أنه سلمه لشخصين لا ينجبان مقابل ثلاثة آلاف جنيه!

من حسن الحظ أن إحدى الممرضات قد لمحت وجوده فأسرت لزميلتها قائلة: "مش ملاحظة إن شوربجي بيجي المستوصف كتير بالليل من ساعات ما عطيات بقت تبات في المغسلة!"

كانت الجملة الأخيرة كفيلة أن تجعل عطيات تترك المغسلة والمستوصف، بل و"مسرة" كلها التي تبين أنها ليست مسرة على الإطلاق. بعد تفكير وأخذ ورد قررت عطيات ترك القاهرة كلها ومتابعة رحلتها نحو الشمال. عرجت على شركة النظافة لاستلام قبض الشهر، وهناك أعطاها مدير الشركة عنوان مكتب تشغيل وتخديم في الإسكندرية قبل أن تنطلق لمحطة قطارات العاصمة مرة أخرى.

سارت في شارع شبرا وسط الزحام عكس اتجاه السيارات وقد غاب عنها عقلها. لم تنتبه من شرودها إلا على أصوات صادرة عن مشاجرة كبيرة بين أصحاب بعض المحلات طار فيها كل شيء في الهواء. كان نصيبها بيضة في صدرها أتلفت جلبابها. هرعت نحو كوبري الليمون وهي تقبض على متاعها بشدة حتى لا تتعرض للسرقة، وبالرغم من ذلك فقد مد شاب يركب دراجة بخارية خلف آخر يده فمسك صدرها حتى آلمها. بكت عطيات حيال عجزها وقلة حيلتها وخيبة أملها.

لم تكن القاهرة رحيمة بها. القاهرة مدينة لا تعرف غير منطق القوة ولا يعيش بها غير الأقوياء. إياك أن تظن أن القاهرة سترثي لحالك إذا اختنقت في شوارعها أو سقطت من أبواب حافلاتها أو وقعت في إحدى بالوعاتها. أياك أن تصدق أن القاهرة ستهتم بصراخك أو تحفل باستغاثاتك أو تلتفت لتأوهاتك.

كل ما يمكن أن تمنحك إياه القاهرة عندما تموت جوعا وكمدا هو متر أو يزيد قليلا بجوار سور من أسوارها. وتأكد أن أحدا لن يشعر أنك ميت حتى تتفسخ أعضاؤك وتنتفخ بطنك وتخرج رائحتك. وقتها فقط سوف يهم أحد المتضررين من وجودك بالاتصال بالشرطة من هاتف مجهول ويقف بعيدا حتى وصول عربة الإسعاف حتى لا يدخل في سين وجيم!

ربما ينتهي بك المقام إلى مشرحة القصر العيني ولسان حالك يقول لتلك المشارط التي راحت تقطع أمام جمع من الطلاب والطالبات أوردتك وشرايينك وأوصالك: "هذا قلبي، جاهد كثيرا حتى لا يتوقف؛ وهذا لساني، لطالما غنى بلادي بلادي. هذه يدي، رفعت بها علم مصر في سيناء؛ وهذه معدتي هضمت أطنانا من الفول والذرة؛ وهذه أصابعي التي لا يشبه فيها واحدا الآخر؛ وهذه أمعائي التي لم تكف يوما عن العراك."

قبل أن يتوقف القطار القشاش على الرصيف اندفع على أبوابه أكوام من البشر. كادت عطيات أن تختنق وأن تفقد ملابسها في الزحام. شعرت بأيدي عديدة تخترق وتلتهم كل جزء في جسمها. بعد فترة وجيزة من قيام القطار أحست عطيات بحركة غريبة. شرع الركاب في التنقل بين العربات والاختباء بدورات المياه تجنبا لتذاكر المحصل وغرامات "التطويق". أتاحت لها هذه الحركة مكانا على أرضية القطار فاشترت سميط وجلست تلتهمه بالملح المخلوط بالفلفل والكمون والشطة والكزبرة.

ألقى صبي بعض الكتيبات الدينية في حجرها. "الأربعة بجنيه"، هكذا صاح. كانت الكتب مطبوعة في السعودية "طباعة فاخرة". سمعت أحد

الركاب يقول لآخر: "الكتب دى بتتوزع ببلاش في المملكة وفي ناس بتجيبها وتبيعها هنا!"

نظرت عطيات إلى عنوانين الكتب التي في حجرها. من حسن حظها أن أسرتها استبقتها في المدرسة حتى الإعدادية، ولذا فهي تعرف القراءة والكتابة وتفهم كثيرا مما يحدث حولها. كان إحداها عن تحريم حلق اللحى وآخر عن النهي عن مخالطة النصارى وموالاتهم وحضور قداسهم والاحتفال بأعيادهم أو حتى تهنئتهم.[102] أما الثالث فكان عن تحريم الاحتفال بالمولد النبوي وأخيرا حمل الرابع كلمات عن نهي سفر المرأة أو خروجها بدون محرم.

سمعت راكب آخر يقول لامرأة يبدو أنها زوجته: "شفتي الخبر بتاع الكوكاكولا ده، بيقولك لو قلبتي العبارة تطلع... لا محمد لا مكة!" أخذت الزوجة الصحيفة من يد زوجها و لم تعلق. مادة الكولا موجودة من مئات السنين؛ ومعروف أن الغرب لا يؤمن لا بمحمد ولا بمكة ولا بالإسلام كدين سماوي، فليس من المنطقي أن يصنع عبارة لا تُقرأ إلا أمام مرآة ليعبر عن شعوره تجاه هذا الموضوع الذي يصرح به علانية!

يذكرنا هذا الأمر بمن قطع أزرار قميصه لأن عليها شكلا يُشبه الصليب وبمن خلع نافذة زجاجية في بيته لأنها تُشبه الصليب وبمن غير صنبور المياه لأنه يشبه الصليب وبمن حرم "السمبوسة" لأن أضلاعها تشبه الصليب[103]! إذا كان المسلمون يؤمنون بأن عيسى عليه السلام لم يُصلب فلماذا يتأذون من الصليب؟! صحيح أنه منهي عن التشبه بأهل الكتاب،

لكن ينبغي عدم التشدد والمبالغة في هذه الأمور التي وصلت إلى حد تحريم مفتاح الحياة الفرعوني الذي يرمز للوادي والدلتا لأنه يشبه الصليب ؛ وإذا كان من الممكن التخلي عن لبس الساعات التي عليها الصليب السويسري فهل يمكننا أن نمنع أعلام دول الكومنولث من أن ترفرف على سفاراتها ببلادنا؟! ولماذا إذن لا نلغي علامة الجمع التي نعلمها لأولادنا أو نطلب من الإنجليز أن يغيروا حرف (t)؟!

ينبغي على المنصف من المسلمين ألا ينفي وجود صليب "الصليوت" أو الصليب العظيم لأنه حقيقة؛ وكل ما في الأمر أن من حمل هذا الصليب أو سُمر عليه هو شخص آخر؛ وعندما حطم صلاح الدين هذا الصليب – كما قيل– فإنه حطم ما رأى أنه خرافة وما استقر في معتقده أنه ضلالة. ثم أليس الصلب خيارا في حد الحرابة؟![104] وهل الصلب لم يكن موجودا قبل عيسى عليه السلام؟! ألم يُصلب سحرة فرعون قبل مولده بمئات السنين؟! وهل توقف الصلب عند هذا الحد؟! ألم يُصلب عبد الله بن الزبير والوليد بن يزيد والأمين وجعفر البرمكي والحلاج وزيد بن علي بن الحسين وابنه يحيي وآخرين؟!

6

وصلت عطيات إلى الإسكندرية مع حلول المساء. "الإسكندرية أخيرا... قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع."[105] المدينة التي استعصى على الكثيرين فهمها فوقفوا متعجبين من هذا الخلط العجيب وقدرتها الهائلة على الهضم والاستيعاب.

فتح عمرو بن العاص مصر كلها صلحا عدا الإسكندرية فإنها فُتحت عنوة. الإسكندرية مدينة مترفعة ومتمنعة ومتدللة. "أحب الرباط إلى الله تعالى."[106] إذا دخلتها وصرت بين البحر والبحيرة أطبقت عليك فصرت أسيرها وصار الفكاك منها أمر مستحيل. "عروس الماء وخميلة الحكماء والشعراء."[107] "ترنيمة الزمان ومعشوقة التاريخ."[108] قال عنها يوليوس قيصر: "حاورت المدن جميعها إلا أنني لم اسمع إلا همسها."

فيها عاش الأوروبيون وإليها لجأ المتفرنجون والعلمانيون والليبراليون ومنها انطلق آريوس[109] لينفي الإلوهية عن المسيح ومنها خرج السلفيون[110] ليقولوا أن الدين والوطن لله. السكندريون هم من أقاموا معبد السيرابيوم للتوفيق بين آلهة المصريين واليونانيين وهم من قتلوا مرقص الرسول وسحلوه في الشوارع[111] وهم من فصلوا سفن المسلمين في الميناء الشرقي عن سفن الكفار في الميناء الغربي! السكندريون هم من شيدوا مسجدا ومقامة لصاحب البردة؛[112] وهم من وقروا مراقد أبناء سيدي علي زين العابدين في مجمع الأضرحة ببحري؛ هم من احتضنوا الجماعات الإسلامية وفرشوا الساحات ليصلوا العيدين في الخلاء؛ هم من فجروا قضية "عبادة الشيطان" قبل خمس سنوات من نهاية القرن العشرين؛ وهم غنوا مع سيد درويش "اللي أوطانهم تجمعهم، عمر الأديان ما تفرقهم."

السكندريون هم من نقل الجنون الطائفي إلى المتوسط في محرم بيه والعصافرة وسيدي بشر وقبل نشأة هذه الأحياء بمئات السنين. كتب المقريزي في "القول الإبريزي" في أحداث عام 435م: "واجتمع بالإسكندرية كثير من اليهود في يوم الفصح، وصلبوا صنما على مثال المسيح، وعبثوا به، فثار بينهم وبين النصارى شر، قُتل فيه بين الفريقين خلق كثير، فبعث إليهم ملك الروم جيشا قتل أكثر يهود الإسكندرية." أما ابن بطوطة فيروي في رحلاته أنه عام 727 هجرية وقعت في الإسكندرية مشاجرة بين تجار من النصارى والمسلمين الذين اعتقدوا أن أمير المدينة ويُلقب بالكركي أعان النصارى عليهم "فثاروا به وحصروه في قصره، فاستغاث بالملك الناصر محمد ابن قلاوون، فأعانه بجيش أعاد الأمن في

البـلاد، وقتـل من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا قطـع كل واحد منهم إلى قطعتـين وصلبهم صفين." في يونيـو 1882 نشبت مشاجرة بين عربجي مصـري اسمه "السيد العجان" ومالطي علـى أجرة الركوب. تطور الأمر بينهمـا فطعن المالطي المصري بسكين فأرداه قتيلا. ثار الأهالي ضد الرعايا المسيحيـين واندلعـت أعمـال الشغب، ممـا تسبب في ضـرب الأسطول الإنجليزي للإسكندرية ومهد لاحتلال مصرا

قبل أن يصل القطار لمحطة سيدي جابر أخرجت عطيات عنوان مكتب التخديم والتشغيل. تبتلت للعذراء أن تقف بجانبها وأن تحميها من الذئاب البشرية ومن هم على شاكلة شوربجي. نال هذا الكلب جزاءه على أي حال. ما أحقره حين اعترف أنه كان مغرما بتبديل الرضع حين عُين مسئولا عن إصدار الهويات البلاستيكية لحديثي الولادة وحين عمل لبعض الوقت في حضانة الأطفال المبتسرين!! اتضح أنه يعاني من مرض نفسي. رأى أمه تعاشر رجلا غير أبيه. كره أمه وتمنى تغييرها. اضطربت نفسيته ووجد راحة في تبديل الرضع ومن ثم تبديل أمهاتهم. اتضح أنه قام بهذا الأمر مرارا وتكرارا!!!

هذا السافل! كم من أمهات ربت أطفالا ليسوا لهن جراء فعلته القذرة، وحتى لو عرفن أنه قام بذلك فلم يكن من الممكن التعرف على الرضع لعدم وجود تحليل الشريط الوارثي DNA في هذا التوقيت أو لغلو ثمنه. على أي حال، يقولون أن قلب الأم دليلها، وهذا صحيح إلى حد كبير. حين تنازعت امرأتان على رضيع أمام نبي الله سليمان، لجأ عليه السلام لتحليل (الدي إن إيه) الخاص به فأمر أن يُشق الطفل نصفين ويُعطى كل

منهن نصف، فصرخت إحداهن متبرئة من بنوته فعلم سليمان الحكيم أنها الأم الحقيقية.

قررت عطيات إخفاء حقيقة دينها تجنبا للمشاكل فالاحتقان الطائفي مستعر هذه الأيام ومسلسل الاعتداء على الكنائس مستمر. تعمدت قبل الذهاب إلى مكتب التخديم تصوير وجه البطاقة فقط دون ظهرها والذي تُنص خانة فيه على ديانة الشخص. ساعد على ذلك أن أهلها لم يدقوا لها صليبا وأن اسمها ليس مميزا وشبيه بأسماء المسلمات "عطيات جاد زكي إبراهيم". حمدت الرب أن السجلات المدنية لا تدون اسم الأم على البطاقة. كان لأمها اسم عجيب، "منجلية"، ومعناه المكان الذي يضم الإنجيل في الكنيسة.

لم تمكث عطيات كثيرا في مكتب التشغيل فقد انتقلت في نفس اليوم لفيلا فاخرة في منطقة لوران. في هذه الفيلا أدركت عطيات من الوهلة الأولى أن هناك حياة أخرى غير التي عرفتها وأن هناك بشرا آخرين غير الذين شاهدتهم في المنيا. كانت الفيلا أنيقة وفسيحة ومريحة ومرتبة وهواها كما يقولون "يرد الروح" لقربها من البحر.

وبقدر ما كانت الفيلا أنيقة ونظيفة كان أصحابها في غاية الذوق والرقة والأدب: الدكتور رامز الذي ينتمي لعائلة كبيرة وموسرة وزوجته سيدة الأعمال "سجدة" والتي تقضي أغلب ساعات اليوم في متابعة أسهمها واستثماراتها بالبورصة وحضور أنشطة سيدات المجتمع في نادي سبورتنج والليونز والروتاري وحفلات "البروم" في المدارس التي تبدأ بكلمة "سان"[113] وحفلات الأوبرا والمعارض التشكيلية والعديد من

مظاهر الوجاهة الاجتماعية، بالإضافة إلى أم إبراهيم الطاهية التي تعيش الحياة دون صخب، والتي ذكرتها بأمها وبدور الأم الذي أدته في السينما بجدارة وتلقائية فردوس محمد وجمالات زايد وأمينة رزق.

كان الدكتور رامز أستاذا للتاريخ في جامعة الإسكندرية. ورغم أنه كان يعيش في رغد من العيش إلا أنه كان مهموما بآلام الناس وفقرهم ومعاناتهم، ويحمل هم الدنيا كلها فوق كتفيه. كان دائما "عاشق سارح في الملكوت"[114] وممن ينطبق عليه قول سليمان الحكيم: "من يزداد علما يزداد حزنا."[115] حين تهيأ لاختيار موضوع رسالة الدكتوراه الخاصة به تناول الشدة المستنصرية[116] وربطها بالسبع السنين العجاف أيام نبي الله يوسف وبالخمسين عاما الخراب من ثورة يوليو حتى مطلع القرن الواحد والعشرين.

كان الدكتور رامز رجلا خلوقا ومهذبا ومحبا للناس على اختلاف مشاربهم وألوانهم وعقائدهم ومذاهبهم. لا يتبرع بالفتوى ولا ينصب من نفسه حكما على أحد. كان كأسامة ابن منقذ ومحيي الدين ابن عربي يقبل كل الناس في حياته ويتعامل معهم بحسن الظن حتى يثبت العكس.[117]

كانت حياته هانئة وهادئة لا يعكر صفوها سوى همه بالتاريخ والفلسفة وتأخره في الإنجاب، وكان الرجل يربط بين الموضوعين ويرى أن الله يعاقبه بتأخر الإنجاب لأنه يشطح بفكره في حوادث التاريخ ووقائع الأيام، بل ويسمح لنفسه بإعادة كتابتها في عقله. بالطبع لم يصرح رامز بما يجول في خاطره لأحد الأمر الذي زاد من شجنه. وصل إلى قناعة بأن

الحيوانات ربما تكون أسعد حالا في هذه الحياة من إنسان يشقى بحياته وعقله ثم يموت ويتعفن ويُنتن جسمه ويتحلل، ثم يُبعث ويُعذب ويُلقى في النار ثم يتبدل جلده ويستعيد هيئته وأنسجته ليحترق من جديد، وهكذا دواليك.

كان والده من كبار مستوردي السيارات في مصر، وكان هذا المليونير مصابا بمرض الارتجاع المعدي المريئي. قام يوما فزعا من نومه وقد ملأت العصارة فمه وانسدت لهاته. أخذت زوجته تضرب ظهره وتعطيه المياه وترشها على وجهه، لكن الرجل ظل يتلوى ويختنق كصرصار رُش بمبيد فانقلب على ظهره. "مات فطيس" كما يقول المصريون.

بعد عام من هذه الواقعة علقت شوكة من سمكة "وقار" في حلق أمه حين بلعتها دون وعي فازرق وجهها. حاولوا أن يعطوها قطعة من الخبز الطري، لكنها لم تستطع تناولها. أعطوها شربة ماء "فشرقت" واختنقت حتى الموت. للمرة الثانية يفقد رامز شخصا عزيزا أمامه بهذه الكيفية. استقر في وعيه أنه سيموت هذه الميتة العبثية، وشعر بكثير من الاحتقار لهذه الدنيا.

بعد وفاة أمه مر رامز بلحظات من الضعف والكآبة. كانت العطلة الصيفية على الأبواب فحبس نفسه في حجرته وشعر بالخوف من الطعام الذي قتل والديه فلم يتناول منه إلا اليسير. أنزل ستائر الحجرة وأوقف الساعة وفصل نفسه نهائيا عن العالم الخارجي. تمنى رامز أن يغير جلده فيصبح إنسانا جديدا يعيش بمنأى عن علامات التعجب والاستفهام. أطلق لحيته وقرر أن يعيش في الفراغ واللاشيء وأن يمنع نفسه عن التفكير، لكنه

لم يستطع فعقله لم يعرف الخمول والبلادة من قبل. في حالات مشابهة يكون الحل الوحيد أمام العديد من الناس الذين يمرون بهذه اللحظات من الهشاشة والوهن هو المخدرات، لكن رامز ليس بالشخص الذي يغيب عقله فلطالما ردد "أنا أفكر إذن أنا موجود".

عاد الدكتور رامز للقراءة وشجنها على صوت "الراديو" الخفيض وبرامج مونت كارلو حتى بدء بث إذاعة حول العالم. كان يتوقف كثيرا أمام السطور ليسأل ويجيب ويحتار وينهار. "نكون أو لا نكون... تلك هي المشكلة." نعم تلك هي المشكلة التي أرقت هاملت وشكسبير وآلاف غيرهما. أتدري ما هي المشكلة؟ المشكلة أننا نعيش حياة مشروطة بالموت. المشكلة أننا نعيش حياة لا نعرف كيف بدأت ولا نعرف متى تنتهي! المشكلة أننا ننام كل يوم ملتاعين ومرعوبين أن لا نفتح عيوننا مرة أخرى.

انقضى الصيف ليحيا الخريف الكئيب كما يقول جبران.[118] عاد رامز إلى الجامعة. كان يجلس بالساعات في مكتبه بكلية الآداب وحجرته بالفيلا يقرأ ويتأمل ويسرح حتى الشتات في أمور لها علاقة بالتاريخ والدين والحياة. من الصعب أن تُقنع رجلا في عقلية الدكتور رامز بأنه لا توجد إجابات لأسئلته. من الصعب أن تعطيه ردود مطاطية مثل "أمر الله"، و"البيضة والدجاجة" و"هذا سؤال جدلي" و"هذا السؤال ليس له إجابة" و"لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوئكم".

إذا كان الله قد خلق العالم فمن أوجد الله؟![119] لماذا لم يسجد إبليس

لأبينا آدم لينهي الأمر عند هذا الحد؟! هل كان إبليس أول عنصري في التاريخ حين قال "خلقتني من نار وخلقته من طين"؟![120] كيف نتحدث عن الحفاظ على الأنساب والإنسان أصله واحد؟! هل يُعقل ما نُسب لأنبياء الله في العهد القديم من أمور يتعفف اللسان عن ذكرها؟! هل اضطهاد الرومان لليهود هو ما دفعهم للنزوح شرقا نحو الجزيرة العربية أم أنهم دخلوا جزيرة العرب لأهداف أخرى؟! هل يعقل أن الأناجيل كلها محرفة وبها كلام جميل من على شاكلة "كل من يرفع نفسه يتضع وكل من يضع نفسه يرتفع"[121] و"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"[122] و"الروح تواقة، لكن الجسد ضعيف"[123] و"... ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه"[124]؟!

هل يُعقل أن تعاقب البشرية كلها بجرم قوم نوح؟! لماذا لم يُذكر نبيا العرب هود وصالح في التوراة؟ لماذا لم يُسلم بحيرا الراهب بعد أن تأكد من نبوة الرسول؟! ماذا دون في مخطوطات البحر الميت وكتابات نجع حمادي ودير سانت كاترين التي اختفت أجزاء كبيرة منها؟!

لماذا لم يصرخ يهوذا الإسخريوطي في وجوه الحاضرين حين حمل صليبه أنه ليس المسيح؟! هل أراد مثلا أن يكفر عن ذنبه حين وشى بنبي الله؟! لماذا يحتفل النصارى بعيد الميلاد في يناير ومريم عليها السلام هزت جزع النخلة وأكلت منها رطبا جنيا، وموسم الرطب في فلسطين هو أكتوبر؟! هل حقا طلب السيد المسيح عليه السلام من الحواريين نشر دعوته في شتى أصقاع الأرض؟! لماذا يصور النصارى المسيح عليه السلام مرة بعينين خضراوين وتارة بعينين زرقاوين وثالثة بعينين عسليتين؟! وهل

يكفي منديل القديسة فيرونيكا الذي مسحت به عرقه ودمائه كما يقول النصارى لتخيل شكله على هذا النحو؟!

لماذا ضغط عمر بن الخطاب على طلحة بن عبيد الله ليطلق زوجته اليهودية وهو يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج السيدة صفية بنت كبيرهم؟! كيف يقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة ثم يتزوج امرأته في نفس الليلة؟! هل فعلا أمر الفاروق عمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية؟! لماذا نهى رضي الله عنه عن قراءة كتب أهل الكتاب والرسول عليه الصلاة والسلام يقول "لا تصدقوهم ولا تكذبوهم"؟! لماذا عين عثمان بن عفان عبد الله بن أبي السرح على مصر وهو يعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام أهدر دمه قبل فتح مكة؛ ولماذا قرب مروان بن الحكم وهو يعلم أن الرسول لعنه؟!

لماذا عذب عمر بن عبد العزيز خبيب ابن الزبير الأمر الذي انتهى بموته؟! ولماذا سحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية؟! لماذا نقم سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير؟! كيف تجرأ الحصين بن النمير والحجاج بن يوسف الثقفي على حرق الكعبة وضربها بالمنجنيق؟![125] لماذا طعن الصفويون العثمانيين في ظهورهم وهم يتقدمون في أوروبا؟! لماذا أطلق السلطان العثماني سليمان القانوني يد زوجته الروسية "روكسلانا" في القصر مما جعلها تحيك المؤامرات والمكائد؟! لماذا حارب محمد علي الوهابيين وخرب الدرعية؟! لماذا كُفر ابن رشد وابن النفيس وابن سينا وابن عربي وأبو بكر الرازي وجابر بن حيان والخوارزمي وأبو العلاء المعري والإمام الطبري والحلاج وغيرهم؟!

لماذا قُتل عثمان رضي الله عنه هذه القتلة البشعة؟! لماذا وقف الجيش الذي أرسله أمير الشام معاوية بن أبي سفيان خارج المدينة المنورة و لم يتقدم لنجدة ذي النورين؟! هل كان من الأفضل أن يتولى علي كرم الله وجهه الخلافة بعد الرسول؟! لاشك أن هذا الأمر كان من شأنه أن يغير التاريخ بأكمله ويحقن دماءا كثيرة. هل هذا الأمر يدخل في باب "قدر الله وما شاء فعل"؟

لماذا خرجت أم المؤمنين السيدة عائشة على ابن عم الرسول وأول من أسلم من الشباب؟! ما حكم العشرة آلاف مسلم الذين قضوا في موقعة الجمل؟ هل ينطبق عليهم قول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار"؟!... لكن طلحة والزبير من المبشرين بالجنة... أم أن كلا الفريقين في الجنة؟![126] ما حكم قتلى صفين؟! ما كل هذه الدماء؟! كيف طاوع يزيد ابن معاوية قلبه فقتل الحسين وأهل بيته؟! كيف قتل العباسيون الأمويين ونبشوا قبورهم؟! لماذا واصل معاوية القتال بعد قتل عمار بن ياسر ومعلوم أن الرسول قال له "تقتلك الفئة الباغية"؟! لماذا خرج الحسين للكوفة وهو يعلم إنه سيموت هناك؟! لماذا يجعل الشيعة الإمامة في أبناء الحسين دون الحسن؟!

يمر الدكتور رامز بلحظات من الطمأنينة حين يتذكر رحمة الله وحكمته في تدبير الأمور. يوبخ نفسه لأنه ينبش القبور ويخرج رفات الموتى. "تلك أمة قد خلت، وده تاريخ قديم واللي فات مات" هكذا قال له أحد زملاءه مضيفا أن الخوض والتمادي في هذه الأفكار يدخل في باب علم لا ينفع

وجهل لا يضر. يقنع رامز نفسه أن كتب التاريخ زاخرة بالإسرائيليات. نعم... فإذا كان آلاف الأحاديث المنكرة قد نُسبت إلى الرسول الكريم فإن من المنطقي أن تشوه كتب التاريخ، لكن شيطان الفكر سرعان ما يعود ليقلب رأسه من جديد حين تُلطخ عقله هذه الدماء الرخيصة التي نزفت على صفحات التاريخ.

سأله بعض طلابه يوما عن رأيه في قتل صدام حسين في عيد الأضحى؟! يدرك الدكتور رامز أن لصدام جرائمه، لكن الرجل أفضى إلى ما قدم وحسابه على الله. دفع الدكتور رامز لتلاميذه قصة الجعد بن درهم[127] الذي ربطه خالد بن عبد الله القسري في منبر المسجد لخلاف في الرأي والرؤية. ختم القسري خطبة العيد قائلا: "أيها الناس ضحوا تقبل الله أضحيتاكم، وإني مضحي بالجعد بن درهم"، ثم نزل من المنبر وذبحه! تاريخ أسود، مخجل، دموي، مقزز، مقرف...

لماذا استهان زياد بن أبيه وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وغيرهم بالدم والرسول عليه الصلاة والسلام يقول أن حرمة دم المسلم أعظم عند الله من حرمة الكعبة؟! ثم ما هذه الطرق البشعة في القتل والتعذيب التي تزخر بها كتب المؤرخين من تقطيع الأوصال وعصر الخصيتين حتى الموت وفقع العيون وبقر البطون وحرق الناس أو دفنهم أحياء وقلع الأظافر وسل الألسن؟! تاريخ كله محنة وأيام كلها كربلاء."[128]

لماذا لم يذكر مرقص ويوحنا ولوقا قصة رحلة العائلة المقدسة إلى مصر؟! كيف يؤمن النصارى بمقولة "أحبوا أعدائكم" ثم يقتلون آلاف المسلمين في محاكم التفتيش بالأندلس وآلاف مؤلفة عند دخولهم القدس في

الحملة الصليبية الأولى؟! كيف يؤمنون بمقولة "فأعطه ردائك وقميصك" ثم يقتلون مئات الآلاف من الهنود الحمر سكان العالم الجديد؟! كيف يؤمنون بمقولة "فسر معه ميلين" ويتقاتلون في حروب دينية خلفت الآلاف والآلاف من القتلى في أوروبا"؟! لماذا وقفت الكنيسة ضد أطروحات العلم ونظرياته فقتلت وحرقت وسجنت وعذبت من العلماء الكثير مثل كوبرنيكوس وجيوردانو برونو وجاليليو... الخ. لماذا قُتل سقراط وهيباتيا وجان دارك وعبد الله بن المقفع والسهروردي وأحمد بن نصر الخزاعي...؟! لماذا نكره ونُقصي ونقتل الآخرين لأن لونهم مختلف أو لأن لسانهم مختلف أو لأن شكلهم مختلف أو لأن دينهم مختلف؟ !

لماذا استعان الحكام المسلمين بالصليبيين ضد بعضهم البعض في الشام والأندلس؟! هل وقوف الأرمن مع الروس يعطى للأتراك الحق في ذبح النساء والشيوخ والأطفال؟! من رخص لأسامة بن لادن قتل الأبرياء؟! من قتل الفلسطينيين في أيلول الأسود؟! من يتحمل دماء اليمنيين عام 1962؟! من أعطى البعثيين المسوغ لشن مجزرة حماة عام 1982؟! من يتحمل تبعة الدماء التي سالت في الحرب العراقية الإيرانية؟!

من رخص لستالين قتل أكثر من عشرة ملايين مسلم؟! من رخص لهتلر إبادة اليهود؟! من أعطى الإسرائيليين الحق في إبادة 3500 فلسطيني في صابرا وشاتيلا؟! من أعطى الأمريكيين الحق في قتل العراقيين؟! من يقف وراء قتل ربع مليون مسلم في الهند؟! لماذا قُتل المسلمين في البوسنة والشيشان وأفغانستان؟! من قتل المسلمين في الفلبين وكشمير وأندونسيا؟! هل هذا هو صراع الحضارات[129] أم صراع الأديان؟ كيف

وصل اليابانيون إلى هذه المكانة المتقدمة رغم أنهم ليسوا أهل كتاب؟! هل الدين هو فعلا ذلك الأفيون الذي يخدر الشعوب؟! هل يجب فصل الدين عن الدولة كما فعل الأمريكيون؟!

هل وكيف ولماذا و لم؟ ما أقسى الوجع الذي تسببه هذه الكلمات البسيطة لرجل قرر أن لا يُفرط في الأمانة التي رفضت السموات و الأرض والجبال حملها! ما أصعب هذه الكلمات على رجل قرر أن لا يحمل فوق كتفيه ورقبته جرة لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يسأله عن هذا العقل.

أيها المُغيب... أيها الجاهل... أيها السفيه... لماذا استبدلت عقلك بهذا البالون؟! كيف سمحت للهواء أن يلهو بهذا اللب؟! أنا لم أمنح النُهى لبني البشر كي يحولوها إلى قرعيات؟! كي يغلقوها ويسلمون أنفسهم لأعداء التفكير، أرباب التكفير، إلى فرسان المعبد و"الكو كلكس كلان"[130] وجماعة التكفير والهجرة وحركة "كاخ"[131] و"بوكو حرام"[132]... أولئك الذين أغلقوا عقولهم ثم رموا بالمفتاح في النيل، أولئك الذين ذبحوا الفن والجمال والإبداع بمدي الانغلاق والتخلف ونصال الولاء والبراء والطاعة والكهنوت وتغييب العقول، أولئك الذين يقولون لك لا تجادل... لا تناقش... انظر كيف أورد الجدال إبليس مورد التهلكة وقد كان منعما؟... لا تسأل ولا تتخطى حدودك والزم حد الأدب، لا تماطل مع الغوغائيين ولا تسمح لأحد أن يلبلب عقلك وقاتل زودا عما تعتقد والزم طائفتك وجماعتك فلا تخرج عن صفهم ولا تشق عصا طاعتهم ولا تعمل برأي يغاير رأيهم!!!

من فمك تُدان وبنارك تُحرق أيها الإنسان. صحيح فالتاريخ يصنعه البشر والبشر ليسوا ملائكة. يا عذابات من يبحث عن الحقيقة فلا يجدها! يشقى بعقله صاحب الفكر والرأي وينشد الإجابة عند علماء السلاطين الذين يملكون عقليات تحتاج إلى ترميم، وفي عباءات النفاق الديني وكتب الفلاسفة فتزيد حيرته وتتأجج محنته وينتهي به الحال إلى الشطط. يقول الفيلسوف الألماني ليسنج: "لو أخذ الله الحقيقة المطلقة في يمناه وفي يسراه الرغبة الجارفة للبحث عنها والتعثر في دربها وطلب مني أن أختار لجثوت ذليلا قائلا: "يا رب... اعطني الرغبة في البحث، لأن الحقيقة المطلقة لك وحدك." الحقيقة الكاملة كما يقول الدكتور عدنان إبراهيم لا يملكها أحد: لا ابن تيمية ولا ابن كثير ولا الشافعي ولا ابن حنيفة ولا حتى أنبياء الله الذين يمضون حقبا بحثا عن العلم والازدياد منه.

إذا أردت أن تبحث عن الحقيقة فاخرج عن ثقافة القطيع وغرد خارج السرب واسبح ضد التيار وكن غريبا متفردا فالإنجازات الكبرى لم يأت بها أناس وقفوا في الصف يمسحون عرقهم حتى يصلوا لصنم المقدس ليقبلوا يده ويحصلون على البركة؛ الأفكار العظيمة لم تخرج ولن تخرج من أناس وضعوا عقولهم على أرفف الخرافة وفي خزانات النسك واستبدلوها ببطيخ وكرنب وقرنبيط! هكذا كان إديسون ونيوتن وباستير ومندل.[133]

استعد عقلك؛ وفر له وقوده؛ انطلق به في كل مكان؛ لا تخف؛ الله لن يحاسبك لأنك تفكر؛ الله سوف يحاسبك إن عطلت هذا العقل؛ لا تخشى الريبة فمن الحيرة تخرج الطمأنينة ومن الشك يأتي اليقين. في الواقع إن

عددا كبيرا ممن تتشتت عقولهم وتتغير قلوبهم وتغيب عنهم حكمة الله في خلقه وسننه سبحانه في كونه يملكون قدرا لا بأس به من الإنسانية والمشاعر النبيلة قد لا تتوفر لدى الكثيرين من المؤمنين ذلك لأنهم تؤلمهم مصائب الناس وكربات البشر والمحن التي تحط فوق رؤوسهم والكوارث التي تنزل بهم.(134)

يسألون بجسارة يسميها المتعنتون إلحادا عن أمور تبدو للوهلة الأولى غير منطقية: ما الذي اقترفه ابن السفاح رغم أنه "لا تزر وازرة وزر أخرى"؟! هل يملك الإنسان الإرادة حقا أم أنه "يفر من قدر الله إلى قدر الله"(135)؟ لماذا تُهمش الشعوب المغلوبة على أمرها؟! لماذا تقتل الأعاصير والزلازل والبراكين والسونامي مئات الآلاف من البشر في غمضة عين؟! لماذا يولد الأطفال مشوهين ومعوقين؟! لماذا يعيش الكثيرون في فقر مدقع؟! لماذا لا يوجد تكافؤ في الفرص بين الناس؟! لماذا يولد شخص في بيئة جيدة تساعده على الصلاح ويولد آخر في بيئة تدفعه إلى الإثم والمعصية والخروج على القانون؟! لماذا يدعو شخص ربه بالسنين ولا يُستجاب له؟! لماذا ولماذا ولماذا؟!

هذا المتجاسر ليس أنانيا؛ إنه يألم للمكروبين والمحزونين. هذا المتجاسر يملك عقلا مؤرقا لا يريد أن يعطله أو يجعل التراب والصدأ يتراكم عليه. فكر ساعة خير من عبادة سنة. التفكير فريضة والحكمة ضالة المؤمن. هذا المتجاسر يريد أن يخرج عن الشائع والسائد. هكذا أرادنا الله. الله لا يغضب من هذا الرجل، لكنه سبحانه يغضب من هؤلاء الذين نصبوا نفسهم متحدثين باسم الدين... العاجزون عن الحوار وتوفير الإجابات

المقنعة، المقسمون لرحمة الله، المقولون على الناس، الموزعون لتهم الابتداع والهرطقة والزندقة، المسارعون للحكم بالردة[136] والإلحاد وتوزيع التكفير بالمجان وإعطاء رخص بالقتل.

كان الدكتور رامز ولا شك واحدا من هؤلاء، وكان مهموما بالناس وحوادث الأيام. وبعيدا عن شغف التاريخ وفتنته كان رامز زوج مثالي وعلاقته بزوجته سجدة مثالا للمودة والرحمة والعشرة الطيبة. كلاهما يحب الآخر ويحترمه ويوقره ويجله ويتفانى في خدمته. أنعم الله عليهما بكل شيء: الجمال والمال ومحبة الناس.

قابلها لأول مرة في مقر جامعة بيروت العربية حين انتدبته جامعة الإسكندرية للتدريس بها. كان رامز وقتها محاضرا يحمل درجة الماجستير، أما سجدة فكانت تدرس التجارة وإدارة الأعمال. رتب القدر اللقاء على الدرج. اصطدمت به فسقطت حقيبته وحين هما بالتقاطها من على الأرض اصطدمت رأسيهما، بل قل قلبيهما. حين رفع الدكتور رامز عينيه ونظر إليها تاه في جمال وجهها وعذوبة ورقة ودفء صوتها وهي تعتذر له.

يُقال أن لكل إنسان سره الأعظم. قبل الزواج وجد كلا من رامز وسجدة ضرورة للبوح بهذا السر للشريك الذي سيتقاسم معه ما تبقى من الحياة طالت أو قصرت. بدأت سجدة موضحة أنها لبنانية وأنها تنتمي لعائلة درزية قدمت مصر أثناء الحرب الأهلية في لبنان، ثم حصلت على إقامة في مصر وتخلت عن المعتقدات الدرزية وأعلنت دخولها في مذهب الأشاعرة من أهل السنة والجماعة.

كانت مشكلة رامز أكبر وسره أفدح. أُبتعث لدراسة الماجستير في باريس. درس رامز الفرنسية منذ نعومة أظافره في مدرسة سان مارك بالشاطبي، لذا لم يكن لديه أدنى مشكلة في الدراسة والتواصل. في السوربون تعرف على فتاة فرنسية من الجنوب تُدعى "بلانش*". كانت بلانش اسم على مسمى لبياضها الشديد فضلا عن كونها جميلة ومثقفة وعملية ومتحررة. كان والدها أمريكيا من "ميسوري" وورثت عنه عدم تصديق الأشياء بسهولة كعادة سكان هذه الولاية.

كانت بلانش تدرس التاريخ مثله، لكنها كانت متخصصة في الحقبة النابوليونية بما في ذلك الحملة الفرنسية على مصر. تعلم رامز منها كثيرا عن هذه الفترة. حكت له عن زبيدة الميزوني أو غادة رشيد وقصة زواجها من "مينو" الذي تظاهر بأنه اعتنق الإسلام. سمى مينو نفسه "عبد الله"، ثم أنجب منها طفل. بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر اصطحبها معه إلى فرنسا وهناك كشف عن وجهه القبيح. انتهى الحال بزبيدة هائمة على وجهها في أوروبا، ويقال أنها تنصرت في آخر أيامها.

حكت له عن زينب بنت الشيخ البكري التي أحبها نابليون فتفرنجت في زيها وعاداتها، ثم قتلها أولي الأمر بعد جلاء الحملة الفرنسية عقابا لها. حكت له عن رستم زاده، المملوك الذي أهداه الشيخ البكري إلى نابليون ولازمه في فرنسا وحتى قبيل نفيه ووفاته. تعتقد بلانش أن هذا المملوك أيضا قد تنصر. حكت له عن الكولونيل سيف[137] الذي حارب مع نابليون في أوروبا، قدم مصر في زمن محمد علي وعمل في خدمته وأبلى بلاءا حسنا في حرب المورة بصحبة إبراهيم باشا. العجيب أن

الكولونيل سيف أسلم وأطلق على نفسه اسم "سليمان باشا الفرنساوي" بينما تنصرت حفيدته الملكة نازلي، زوجة الملك فؤاد!

وطدت الأيام من علاقة رامز ببلانش. كانا يستذكران معا ويمضيان عطلة نهاية الأسبوع معا. عرف رامز من بلانش أن أخيها ملحد أو "لا ديني"(138)، كما أنه مثلي؛ وأنه يعيش مع صديقه في نيس. كاد رامز أن يقطع علاقته مع بلانش بسبب هذه المعلومة. مما قالته بلانش له في هذا الشأن أن الإنسان خير بالفطرة كما يقول سقراط؛ وأن أخيها ينأى عن الشر في أعماله وأقواله ويفعل الخير إذا وجد فرصة، بل أنه عضو في مؤسسة تجمع الملابس المستعملة في فرنسا وترسلها لدول إفريقية. قالت له أن كل إنسان حر في معتقداته فهناك من يعبد البقر والشجر والأرض والنجوم والأهرامات وقضيب الرجل. قالت له أيضا أن الشاذ يولد شاذا ولا دخل له في هذا الأمر تماما كالمرأة التي تشعر أنها رجل أو العكس وربما خضعت لجراحة لتغيير جنسها!

انتقل رامز للإقامة مع بلانش. الكل يعلم ماذا يحدث حين يجد شاب نفسه مع شابة جميلة بمفردهما. أجل أطفأ رامز نيران شوقه للمرأة في جسد بلانش التي حملت منه. كانت المنحة على وشك الانتهاء فعرض رامز على بلانش الزواج والسفر معه إلى مصر. أكد لها أنه يمكنها البقاء على دينها. أخبرها أن الإسكندرية تشبه إلى حد كبير مرسيليا أو طولون. رفضت بلانش عرض رامز الذي أُضطر للعودة إلى مصر بمفرده. كتب لها على مكان إقامتها في باريس، لكن الخطابات رُدت لعدم الاستدلال عن

المرسل له. لا يعرف ماذا حدث لها أو للطفل. أكدت له أنها ستحتفظ بالجنين، لكنها تريده أن ينشأ مسيحيا!

في إحدى أمسيات فترة الخطوبة تهيأ رامز ليخبر سجدة بقصته حين تذكر الرجل الذي ستره الله بالليل وفضح نفسه بالنهار فغير رأيه واصطحبها عوضا عن ذلك إلى المركز اليسوعي "الجزويت" في شارع بورسعيد بكليوباترا حيث استمتعا بمشاهدة فيلم وثائقي عن بدايات السينما المصرية. تعرض العمل لأول فيلم مصري صامت "برسوم يبحث عن عمل" بطولة بشارة واكيم. شيء عجيب أن نعرف أن مشكلة البطالة في مصر تعود لعام 1923!

أشارت المعلق على الفيلم بعد ذلك إلى "توجو مزراحي" مع لقطات من فيلمه "المندوبان". ولد توجو مزراحى في الإسكندرية لعائله يهودية. وتعلم في مدارس هذه المدينة التي عاش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون وحتى الملاحدة ولهم في الشاطبي مدفن خاص بهم. في سنة 1929 أسس مزراحي أستوديو سينمائي كان مكانه سينما "ليلى" في حي باكوس. أما فيلم "المندوبان" 1934 فيتناول قصة الصداقة التي جمعت بائع اليانصيب "شالوم" وصديقه صبي الجزار "عبده" وقصة حبهما لجارتين لهما والمشاكل المادية التي تقف عائقا دون الارتباط بهما.

7

كان كل شيء في الفيلا مرتبا ومنظما لحد الهوس. لا شيء يتحرك من مكانه. كان الصمت هو السمة الغالبة في هذا البناء الفسيح، صمت لا يقطعه إلا رنات الهواتف وصوت التلفزيون الخفيض ومناقشات الزوجين المدمنين للقراءة. وهبهما الله منحا كثيرة، لكنه سبحانه حرمهما الولد. جربا كل شيء من "كف مريم"[139] حتى الحقن المجهري. قالت سجدة لزوجها وهي تنظر إلى شجرة زينة جميلة بلا ثمر:

– يظهر ما فيش أمل يا رامز.

– ليه بتقولي كده؟! بكره نعيد الحقن. أنا حاسس إن ربنا هايكرمنا.

– يارب يا رامز.

كان لديهما المال اللازم للذهاب إلى أفضل المراكز التي يديرها أحد

أصدقاء رامز لخوض تجربة طفل الأنابيب. كررا المحاولة أكثر من مرة، لكن دون جدوى. زادت المرارة في حلق الدكتور رامز وزوجته التي دعته للزواج عليها.

لا شك أنه يشتاق إلى طفل يداعبه؛ طفل يحمل اسمه؛ يفتخر به بين أقربائه؛ يُنهي حالة السأم والضجر التي تتملكه؛ يضمه لصدره؛ يقبله في فمه؛ يشم رائحته؛ يملأ الفيلا صراخا وضحكا؛ يمتطي ظهره؛ يلعب معه؛ يتلقفه من فوق المقاعد؛ يشتري له لبس المدرسة؛ يعلمه العوم وركوب الدراجات... لكنه يحب سجدة ويريد أن ينجب منها لا من غيرها.

في صباح يوم من أيام الجمع جلس الزوجان في الشرفة يحتسيان الشاي كعادتهما في أيام العطلات. أمسك رامز بجريدة الأهرام بينما كانت سجدة تقرأ قصة قصيرة من مجموعة "كناريا".[140]

– شفت يا رامز القصة دي... مؤثرة جدا.

– عن إيه؟ أنا كمان معايا قصة جميلة في بريد الأهرام.

– طيب احكهالي.

– لا قوليلي قصتك إنت الأول.

فضلت سجدة قراءة القصة لزوجها لأنها لا تُوفق كثيرا في الحكي وتسقط منها بعض التفاصيل:

"في شقة صغيرة بالطابق الأول من عمارة في حي الظاهر سكن الأستاذ موريس المحاسب في أحد البنوك مع زوجته مدام جانيت التي تعمل في مدرسة تعليم لغات أجنبية. تجاوز الاثنان سن الإنجاب... لكنهما قانعان

بحياتهما التي تمضي في هدوء وتتخللها نزهات وزيارات يوم الإجازة."

تمضي القصة فتقدم لنا شخصية هدى بنت محمود البواب الذي تعود أصوله لأسوان. كانت هدى تشتري الطلبات لمدام جانيت، وكانت الأخيرة تحضر لها الكيك لتتناوله أمام التلفاز. كان وجود هدى يخلق جوا من البهجة وبمجرد أن تغادر "... ينسل لون ما من الجو، ويحل شعور خفيف بالوحدة والأسف في الصالة، وعلى كسوة المقاعد، ويتفادى موريس وجانيت أن تتقاطع نظراتهما، إلى أن ينطق هو ورأسه فوق الجريدة بعبارة ما، ليس لها معنى خاص، وتؤكد هي على كلماته وعيناها سارحتان: طبعا.. طبعا. تنهض واقفة: أعمل لك شاي؟ وينظر كل منهما إلى الآخر، وينقل بنظرته مشاعر مختلطة من ذنب وغفران وعرفان لأنهما مازالا معا ولأن أيا منهما لم يقل للآخر أبدا أن الحياة موحشة."

تحشرجت الكلمات الأخيرة وخرجت بصعوبة من فم سجدة، ثم سحت دموعها على أوراق الكتاب. أنبل ما في الإنسان دموعه كما يقولون. ضمها رامز في حضنه وراح يربت على كتفها. أخذ الكتاب من يدها ووضعه بعيدا عنها. حين خرج رامز لصلاة الجمعة كانت سجدة تقرأ قصة بريد الأهرام لعبد الوهاب مطاوع. جاءت القصة على لسان رجل يشتاق للخلف. يقول فيها:

"...عشت علي هذا الأمل... افرغ حنيني للأطفال في طفلي أختي... واهتم بعملي حتى نما واتسع والحمد لله، وأصبحت الحياة جميلة من كل النواحي، ماعدا هذه الناحية المفقودة وهي الإنجاب...

ووجدت نفسي قد تقدم بي العمر و لم أنجب بعد فبدأت – وبالرغم من حبي الكبير لزوجتي– أفكر في الزواج من أخرى... وسألت أهل العلم فقالوا أن الرغبة في الإنجاب مبرر شرعي للزواج... حزمت أمري و لم يعد يجدي التردد، فقد مضى علي زواجي تسع سنوات وليست هناك أي بادرة للحمل، وأصبحت المشكلة الرئيسية التي تواجهني هي كيف أفاتح زوجتي في رغبتي في الزواج من أخرى بغير أن يؤثر ذلك علي حياتي معها، أو أن يتأثر الحب الكبير الذي يجمعني بها وشغلني هذا الأمر أكثر من أي شي آخر...

حرت كيف أفاتح زوجتي، وكلما هممت بذلك نظرت إليها فوجدتها منكسرة وحزينة فأشفق من إيلامها، واستشرت زوج أختي فنصحني بأن أصطحب زوجتي في إجازة إلي أحد المصايف أو المشاتي وأن أمضي معها وقتا سعيدا وخلال رحلة العودة أفاتحها في الأمر وهي مازالت منتشية بذكريات الإجازة السعيدة... فعلت ذلك بالفعل واصطحبت زوجتي إلي الفيوم وقضينا ثلاث ليال... وسعدت زوجتي بالإجازة سعادة كبيرة وأنا أرقبها خفية وأشفق عليها مما ينتظرها، وركبنا السيارة عائدين إلي القاهرة، وأنا أتحين الفرصة لكي أفاتحها في الموضوع وأفكر في الكلمات التي أعبر بها عما أريد...

كنا قد قطعنا نصف الطريق حين غالبت ترددي والتفت إليها لأصارحها بما أريد، فإذا بي أراها وعلامات الامتعاض والمرض بادية علي وجهها وسألتها منزعجا عما بها فأشارت إليّ أن أتوقف بالسيارة فوقفت علي جانب الطريق، فإذا بها تفتح باب السيارة وتفرغ معدتها

علي الأرض وتبدو في غاية الإرهاق والمعاناة... أسرعت إلي طبيب العائلة في ميدان الدقي، ورويت له ما حدث، ففحص زوجتي فحصا دقيقا ثم ابتسم في وجهي وقال لي: مبروك زوجتك حامل في أسابيعها الأولي.. يا سبحان الله العظيم.. حامل؟! وأنا الذي هممت باستئذانها في الزواج من أجل الإنجاب!"[141]

في المساء وبعد أن نامت سجدة أخرج القلق والسهاد الدكتور رامز إلى الردهة كما يحدث كل يوم. وقعت عيناه على كتابها فأمسك به وجلس على ضوء الأباجورة الخافت يتابع قراءة القصة التي مضت لنعرف منها أن والد هدى مات بعد عودته من إحدى جلسات الغسيل الكلوي بالقصر العيني، وأن سكان العمارة لم يستدلوا على أي من أقاربه فقاموا بجمع التبرعات لدفنه. انهارت هدى باكية فمدت لها مدام جانيت يد العطف والحنان فمسحت دموعها ووفرت لها فراشا لتنام عليه وابتاعت لها ملابس جديدة، بل وفكرت في إلحاقها بالمدرسة.

بدأ الناس في الشارع يتقولون و"يلسنون" على الأستاذ موريس ويتحرشون به متهمين إياه بأنه يريد أن يُنصر البنت المسكينة. استشار موريس صديقه في العمل فأشار عليه أن يُخرج هدى من بيته تجنبا للمشاكل. حكى موريس لزوجته ملابسات الموضوع فاستمعت إليه بوجه باهت مخطوف ثم انهارت على الفراش منفجرة في البكاء. أخبر الأستاذ موريس هدى بضرورة أن تذهب لحال سبيلها، لكن البنت الصغيرة مطت شفتيها وهزت رأسها رافضة وهرعت إلى مدام جانيت في المطبخ وأخبرتها بالأمر، لكن الأخيرة وقفت بوجه متصلب وتشاغلت

بغسل الصحــون بعصبية. في النهاية لم يجد موريس بدًا من جذ ب هدى بقــوة خارج الباب. البنت خارج الشقة، ملتصقة بالباب المغلق، تخمشه كالقطـة وتبكــي:

– أنا زعلتك في حاجة؟ والنبي دخلني. دخلني والنبي ياعم موريس.

تفر دموع موريس وراء الباب المغلق يقول:

– ما أقدرش يا بنتي.. والعدرا ما أقدر.

– والنبي، والعدرا، والنبي.

... الباب مغلق وخلف كل ناحية شخص وحيد بحاجة للآخر.

وضع رامز الكتاب جانبا. كان هو من بكى هذه المرة. فكر منذ شهرين في كفالة طفل أو تبنيه، لكنه عاد وطرح الفكرة جانبا. ظل في حيرته بين الرغبة في أن يكون لديه طفل من صلبه وكسره لخاطر زوجته سجدة بالزواج عليها. تمنى منذ زواجه أن ينجب أطفالا يملئون البيت. اختار هو وزوجته في فترة الخطوبة أسماء أولاده الأربعة. اشترط عليها ألا تستخدم أي نوع من موانع الحمل. يحب زوجته بشكل جنوني، لكن خطط الإنجاب تعثرت أمام المشيئة الإلهية. لم يفقد الأمل وانتظر كل يوم أن تفاجئه زوجته بالخبر السعيد، لكن دون جدوى. خاضا معا جميع الفحوصات وتجارب الحمل ووصلا إلى طريق مسدود.

في الصباح أطرق الدكتور رامز مفكرا لدقيقتين أمام الشرفة ثم التفت إلى سجدة التي كانت ممدة على الفراش بين النوم واليقظة قائلا:

– سجدة... انتى حب حياتي. انتى في دمي. اسمعي... عندي فكرة

ممتازة لموضوع الخلف قالي عليها الدكتور خالد من أسبوع. انتى عارفه إنه صحبي من أيام البعثة ونفسه يساعد بأي طريقة.

– من أسبوع وما حكتليش؟!

– كنت بافكر وما جبتشي أشغل بالك.

– خير؟

–"سيروجسي" Surrogacy.

– يعني إيه؟!

– استئجار الأرحام... نفس إجراءات طفل الأنابيب،[142] لكن عن طريق أم بديلة.

– تقصد حاضنة؟!

– آه... الموضوع ده موجود في أمريكا، وفي هناك مصحات مسئولة عنه من لحظة الحقن مرورا برعاية الأم لغاية الولادة. يعني لو مش هينفع نعمله في مصر نسافر نعمله في أمريكا... وهو حتى المولود ياخد الجنسية.

– والله فكرة.

– إنت عارفه إن في أمريكا ممكن الأم البديلة تكون أخت الأم أو صاحبتها أو حد معرفة يعملها الموضوع ده خدمة.

– ليه هو مكلف قوي؟

– أكيد

- طيب... هل في أي حرمانية؟!

- يعني زي أي حاجة جديدة هناك من يحلل وهناك من يحرم... زي فوائد البنوك والبورصة وبوالص التأمين والاستنساخ ونقل الأعضاء وإجهاض الجنين المشوه...

- سألت مين؟!

- دار الإفتاء بسموحة.

- قالولك إيه؟

- والله شاب صغير يمكن لسه ما تجوزشي قالي "حرام... لا شك أن هذا أمر يتعارض مع الفطرة."... مش كده وبس ده وصفه بأنه نوع جديد من الاستبضاع!!

- استبضاع؟!

- هو قالي كده بالنص: "هذا نوع من زواج الجاهلية. كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: اذهبي إلى فلان الفحل فاستبضعي منه رغبة في تحسين النسل أو إنجاب الولد."...

- الموضوع مالوش علاقة خالص!

- مش بس كده ده قالي كمان "وفر نقودك وتزوج إذا كنت تشتاق إلى الخلف... النساء يا أخي لسن فئران تجارب ولا بقر فريزيان ولا ينبغي أن تكون أرحامهن سلعة تُباع وتُشترى وتُؤجر!"

- طيب إيه وجهة نظر اللي حلل؟

- قياسا على استئجار المرضعات. أنا متأكد إن في يوم من الأيام

هيحللوا استئجار الأرحام، وزي ما في دلوقتي أخوات في الرضاعة بكره يبقى في أخوات في الحضانة.

– فعلا من حق كل امرأة إنها تكون أم وتحمل من الراجل اللي بتحبه.

– عارفه... أهم شيء أن النطفة مني والبويضة منك... يعني مافيش اختلاط في الأنساب... استفتي قلبك ولو أفتوك... ده إحنا كمان ممكن نحدد نوع الجنين.

– معقولة؟!

– طبعا... هو صحيح الموضوع ده لسه في بداياته، بس العلم اتقدم كتير. زمان كان الأب والأم مش بيعرفوا نوع الجنين خالص لغاية ما العلماء اخترعوا السونار... النهارده ممكن تحديد النوع سواء ذكر أو أنثى قبل الحقن... سبحان الله العلم رائع ولا يمكن يكون ربنا ضده طالما ما فيش حاجة غلط.

– يا سيدي بنت، ولد... أنا راضية بأي حاجة. بس...

– بس إيه؟!

– الحاضنة؟!

– مالها؟

– مش ممكن تطالب بالجنين.

– شوفي في بدايات الموضوع ده في الولايات المتحدة في حالة صممت الأم البديلة فيها على الاحتفاظ بالجنين...

– طيب وبعدين؟!

– الموضوع وصل للقضاء وأظن المحكمة حكمت ليها لأن ما كنشي في عقد مكتوب. دلوقتي في محامي بيكتب ورقة يحدد فيها كل الشروط علشان يتغلبوا على الموضوع ده.

– شروط؟! زي إيه؟!

– يعني زي اتفاق يُلزم الأم البديلة أنها تخضع لأي تحايل و اختبارات وتكمل الحمل وتمتنع عن التدخين أو تناول أي شيء آخر؛ ويلزمنا كمان إننا نستلم الجنين لو حصل طلاق أو انفصال؛ وينظم الأمور المالية ورؤية الأم الحاضنة للطفل...

– إيه اللي إنت بتقوله ده؟!

– يا ستي دي مجرد بنود في العقد... كمان لو حصل وفاة للأب أو الأم أو كلاهما أو طلع الجنين عنده مشكلة صحية لا قدر الله...

– لا قدر الله.

– وبعدين إحنا نشوف واحدة صحتها كويسة ونديها قرشين تفرح بيهم.

– وتفتكر ممكن نلاقي حد يرضى بالوضع ده؟

– إنت بتتكلمي في إيه؟! ماسمعتيش عن الأمهات اللي بيرموا ولادهم من لحمهم ودمهم وصلبهم قدام الجوامع والأديرة؟!

– لا سمعت وشوفتهم في الملاجئ.

– المهم يا حبيبتي إن الموضوع ده يكون سر ماحدش يعرف بيه خالص علشان ده ممكن يعاقب عليه القانون.

- معقولة؟!

- طبعا طالما ما فيش تشريع بينظمه. خالد هيعمل الموضوع ده أساسا خدمة لينا... وهو ضامن الناس اللي بيشتغلوا معاه... لازم تأكدي على أم إبراهيم.

- ما تقلقشي.

وافقت سجدة على خوض غمار هذه التجربة بدلا من أن يتزوج رامز عليها فهي - وإن شجعته على ذلك - تحبه وتغار عليه ولا تطيق تخيله في فراش وأحضان امرأة أخرى. اشتاقت كثيرا إلى طفل أو طفلة. صحيح أن آلام الحمل ممتعة وأن وجود الجنين في بطن الأم يوثق العلاقة بينهما، لكن المثل أيضا يقول "الأم مش اللي ولدت؛ الأم اللي ربت وتعبت". سمعت عن آباء وأمهات وجدوا أطفالهم الضالين بعد سنوات، لكن هؤلاء الأطفال رفضوا الإقامة معهم وأرادوا العودة لمن تربوا ونشأوا في كنفهم.

8

بعد أسبوع من هذا الحديث تلقى رامز مكالمة من كراديسي، صاحب مكتب التخديم فرافق زوجته لرؤية عطيات؛ وحين تأكدا أنها فتية اصطحباها إلى منزلهما بلوران بعد دفع المبلغ المقرر. وكما لم تكن سجدة أمينة حين قالت لصاحب المكتب آنفا عبر الهاتف أنها تريد فتاة للخدمة وحسب لم يكن المعلم كراديسي أمينا عندما قال لزوجها أنه يحتفظ ببيانات عطيات وصحيفتها الجنائية في ملف لها بالمكتب. الحقيقة أن كل ما كان يخص عطيات لديه هو صورة بطاقتها التي سلمتها هي له، لكنه لم يكذب حين نعتها بقوة البنية وأنها "مقطوعة من شجرة".

كان المعلم كراديسي طويل القامة أسمر البشرة ناتئ العظام. ربما تعود أصوله إلى منطقة "الكراديس" بالسودان، أو أن اشتراك جده الكبير في الحملة المصرية على المكسيك في زمن الخديوي إسماعيل قد أكسبه هذا

اللقب لأن "كردس" تعني "عسكر" ومنها مدينة "كرداسة" بالجيزة. على أي حال لابد أن أي عائلة في الوجود سوف تشعر بالخجل لانتساب هذا الرجل إليها.

كان المعلم كراديسي ميكافليا أكثر من ميكافيلي، وكان ماهرا في نسج الأكاذيب والاحتيال ولا يتورع عن فعل أي شيء بغية المكسب السهل السريع حتى ولو تاجر في الرقيق الأبيض. في مقتبل حياته عمل المعلم كراديسي محللا يتزوج ويطلق من أجل المال، كما احترف شهادة الزور في المحاكم واستخدمه المحامون في التزوير وتلفيق التهم. في مناسبة سابقة اشترك مع آخرين في تزوير "شهادة معمودية" وإثبات تنصر شخص يقيم خارج الوطن أراد أخوته أن يحرموه من الميراث.[143] كانت كل جريمة هذا الشخص -من وجهة نظر أخوته- أنه تزوج من فلسطينية مسيحية من عرب 48 تحمل الجنسية الإسرائيلية. نال كراديسي مبلغا كبيرا من هذه العملية ففتح مكتب للتخديم يدير منه في الخفاء عملياته الحقيرة وصفقاته القذرة.

بعد عشرة أيام من وصول عطيات إلى الفيلا، وبعد أن شعرت بالراحة والطمأنينة فيها، وبعد أن أحست بقيمة النعيم وتذوقت أنواعا عجيبة من الأطعمة ونامت على سرير جميل ولبست الملابس الملونة لأول مرة في حياتها فاتحتها ربة البيت في الموضوع وشرحت لها التفاصيل ووعدتها بأن تعطيها مبلغ عشرة آلاف جنيه بعد الولادة لتبدأ به مشروعا أو تستأجر شقة أو خلافه. ارتبكت عطيات في البداية واحتاجت لوقت طويل لتفهم الموضوع. هذه أول مرة تسمع عن هذه الأشياء. سمعت عن استئجار

الأراضي والمنازل والمحلات والسيارات والمعدات، لكنها لم تسمع عن استئجار الأرحام! المرأة ليست خزانة في بنك تُستأجر لتوضع بها بعض الأغراض! "استئجار الأرحام"، يا لها من عبارة قاسية تستدعي إلى الذهن من تؤجر فرجها بالساعة لمن يرغب في ممارسة الجنس!

لا شك أن عطيات في حاجة إلى المال، ولا شك أنها أدركت أن إقامتها بالفيلا أمر مؤقت لأنها تريد أن تتزوج كأي امرأة ويكون لها حياة منفصلة. نصحتها "أم إبراهيم" أن لا تجعل قطار الزوجية يفوتها. صحيح أن اسمها "أم إبراهيم"، لكنها لم تتزوج. ولدت بوحمة كبيرة في خدها الأيمن وحنك مشقوق أو ما يُسمى "بالشفة الأرنبية". لم يكن لدى والدها المال ليجري جراحة تجميلية لفمها الأمر الذي أثر أيضا على مخارج الحروف عندها، ونتيجة لذلك عزف عنها الرجال. ما أصعب العنوسة حين تشعر المرأة أنها غير مرغوبة! ما أقسى أن تعيش امرأة عمرها كله دون رجل في حياتها! ما أقسى أن تفقد بويضاتها ويذبل جسمها ويتجعد وجهها دون أن يلمسها رجل! ما أقسى أن تتلف فساتينها ويتطاير عطرها دون أن يقترب منها رجل!

أحبت عطيات أم إبراهيم، لكن المشكلة أن الأخيرة تدعوها بين الحين والآخر للصلاة جماعة فتتحجج وتتهرب منها. منذ يومين فقط أيقظتها لصلاة الفجر، و لم تجد عطيات سبيلا للفكاك منها هذه المرة فوقفت تقلد حركاتها وتقول في سرها صلاة "البكور". الشيء العجيب أنها حين كانت تذكر العذراء في نفسها كانت أم إبراهيم تصدح بها في سورة الكهف. طلبت أم إبراهيم ذات يوم من عطيات تغيير حجاب وجهها لأن الشال

الذي تضعه على رأسها يكشف شعرها. قالت لها وهي تناولها طرحه من خزانة ملابسها:

– خدي يا حبيبتي... دي زيادة عندي.

– طيب وماله بس الشال يا خالتي. هو العفة بالحجاب؟!

– لا يا بنتي بس الحجاب زينة الست. شوفي حتى الرسوم بتاعت ستنا مريم تلاقيها محجبة ومغطية شعرها بالكامل.

– خدي كمان الإسدال ده.

– ليه؟!

– ده ها يريحك في الصلاة.

– شكرا يا خالتي.

كانت أم إبراهيم امرأة متدينة بلا شك، لكن تدينها يميل إلى الشكل أكثر من المضمون، ولا يعني ذلك أنه لم يكن تدينا صحيحا مخلصا لوجه الله، لكنه كان موغلا في القشور يفضل السواك على فرشاة ومعجون الأسنان حتى لو كان هذا المعجون مستخلص من عصارة شجرة الأراك وهي نفس الشجرة التي يؤخذ منها السواك. كانت السبحة لا تفارق يديها اللهم إذا كانت تطهو الطعام فلما سمعت أن للنصارى أيضا مسبحة قررت تركها حتى لا تتشبه بأهل الكتاب! ورغم أن مسبحة النصارى تتكون من واحد وأربعين حبة ترمز في عقيدتهم لعدد السياط التي ضُرب بها السيد المسيح على غرار مسبحة المسلمين التي تتكون من تسعة وتسعين حبة وترمز لأسماء الله الحسنى فقد قررت أن تسبح الله على يديها، وفي مرحلة لاحقة استخدمت عدادا أهدته لها إحدى العائدات من المدينة المنورة.

اصطحبت أم إبراهيم عطيات يوما لشراء بعض الأغراض من وسط البلد، ثم طلبت منها مرافقتها لمجمع المساجد لزيارة ضريح سيدي مكين الأسمر. ترددت عطيات على باب المسجد فبادرتها أم إبراهيم قائلة:

– مالكِ يا عطيات. إنت عندك عذر ؟!

– آه.

– طيب خلينا نزور ضريح الست مندرة[144]... ده بره المسجد.

لم يكن أمام عطيات خيار سوى الموافقة. على باب الضريح أخذت أم إبراهيم تبكي بشدة. قالت لصاحبة الضريح أنها اشتاقت إلى الجنة حيث لا تعب ولا حزن ولا قلق ولا شقاء ولا شلل ولا سرطان ولا فشل كلوي ولا تليف كبدي. عرفت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "ما في الجنة أعزب"، وأن الله يزوج العوانس برجال من أهل الدنيا.

كانت قد فازت بحج القرعة، وساعدها الدكتور رامز بمبلغ كبير. توسلت للسيدة مندرة أن ترافقها في رحلة الحج!!! ما أغرب الخرافة في مدينة الإسكندرية! يبدو أن وجودها بين البحر شمالا والبحيرة جنوبا قد غلفها بجو أسطوري وهيأ عقول ساكنيها للابتداع، لكن هذه البدع موجودة في كل شبر من أرض المحروسة. حين كانت أم إبراهيم تتمسح بالرخام والحديد، تذكرت عطيات الخرافات التي تجد مرتعا في مولد العذراء بجبل الطير،[145] وما أثير حول "عجينة العدرا" في الصعيد، وهي عجينة أشيع أنها إذا وضعت على العجين زادته بشكل لافت! حين انتهت أم إبراهيم من مراسم الزيارة أخرجت زجاجة مياه من حقيبتها فشربت وناولتها لعطيات. ترددت عطيات في البداية في الشرب وراء أم إبراهيم.

- لا أنا عازماكي على عصير أحسن يا خالتي.
- يا ختي خدي اشربي. عصير إيه؟! خلي الميه عصيرك.

فعلا أمسكت عطيات بالزجاجة وشربت مُجبرة. في مساء يوم خلت فيه الفيلا من مالكيها دقت أم إبراهيم باب حجرة عطيات ومعها كوبين من الشاي:

- أنا قلت آجي اشرب معاكي الشاي.
- أهلا وسهلا... اتفضلي يا خالتي.
- اسمعي يا بنتي... أنا بحبك وعلشان كده لازم أصارحك بكل حاجة.
- خير يا أم إبراهيم؟!
- مدام سجدة...
- مالها؟!
- طبعا إنت تعرفي إنها لبنانية.
- أيوه... هي قالتلي.
- وقالتلك إيه كمان؟
- قالتلي إن أهلها جم مصر بعد المشاكل والحرب عندهم في لبنان، وإنها اتولدت في مصر... خير يا أم إبراهيم؟! إنت عارفه حاجة؟!
- والله يا بنتي... أنا ما كنتش أحب أتكلم في الموضوع ده بس أنا عارفه إنك وافقتي على موضوع الحقن.

أدركت عطيات من البداية أن أم إبراهيم ليست مستريحة لهذا الأمر، لكنها تتكتم رأيها حتى لا تُغضب مخدوميها. أبعدت عطيات عينيها عن

نظرات أم إبراهيم قائلة:

- لسه بفكر... ليه؟!

- يعني إنت لسه بنت بنوت والموضوع ده ممكن يؤثر عليكي بعد كده... وما تآخذنيش الفلوس مش كل حاجة... وكمان ربنا ما بيتعاندشي.

- مش فاهمة تقصدي إيه يا خالتي.

- والله يا بنتي أنا بتكلم لمصلحتك... الأطفال يا حبيبتي مش كعك العيد، وإنت مش فرن؛ ويا ما عجين مخدوم ومش بيطلع كويس.

- عندك حق يا خالتي، بس...

- بس إيه؟! أنا كمان عايز أقولك حاجة مهمة.

- إيه تاني يا خالتي ؟!

- مدام سجدة...

- مالها؟!

- ممم... مش مسلمة.

- مسيحية؟!

- ولا مسيحية. دي لا بتصلي صلاة المسلمين ولا بتروح الكنيسة!

- طيب وبعدين؟!

- أنا حبيت بس أخلص ضميري أمام الله وابلغك قبل ما تاخدي قرار. أنا صحيح ما جربتش الحمل، بس تفيدة مرات البواب اللي في العمارة اللي جنبنا قالتلي مرة إنها بتعرف إنها هتحبل وهي لا مؤاخذة مع جوزها. الحبل حب ومشاعر مش صينية بطاطس.

هزت عطيات رأسها قائلة:

- كتر خيرك يا خالتي.

وضعتها أم إبراهيم في حرج كبير. الأمانة تفرض عليها أن تخبر مدام سجدة بأنها مسيحية؟... لكن هل ستوافق مدام سجدة على المضي في التجربة؟ أم إبراهيم لا تعرف ديانة مدام سجدة، لكن لا شك أن الأخيرة تعبد الله. لا يتزوج المسلم إلا من موحدة تعبد الله على كتاب أو "كتابية" كما يقولون، لكن فرق المسلمين كثيرة.

على أي حال "ما فيش حد بيختار أبوه وأمه" كما يقولون في مصر، ولا حتى "ديانته". يولد الطفل على الفطرة، ثم يتبع دين آباءه فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. لو افترضنا جدلا أن توأم وزع أو وضع بجوار مسجد وكنيسة [146]، ما هي النتيجة الطبيعية لهذا العمل؟ سينشأ أحدهما مسلم والآخر مسيحي بغض النظر عن ديانة الأب؟ من المسيحيين من يتهود ومن المسلمين من يتنصر ومن النصارى من يسلم ومن السنة من يتشيع ومن الشيعة من يتسنن ومن الكاثوليك من يتبنى البروتستانتية أو يصبح لا دينيا.

أثناء حرب القرم بين تركيا وروسيا طلب السلطان العثماني المدد من الخديوي عباس الأول فأرسل الأخير عددا من الجنود المصريين كان من بينهم عبد الحفيظ الذي كان يسكن إحدى قرى الدلتا. في عام 1853 نشبت واقعة "سينوب" البحرية وكان النصر فيها حليف الروس. غرق العديد من الجنود و لم يُستدل على الباقين وحُسبوا في عداد المفقودين. كان منهم عبد الحفيظ الذي اتجه شمالا ناحية أوكرانيا وفُتن بامرأة هناك

اشترطت عليه أن يتنصر ليتزوجها ففعل. مات عبد الحفيظ أو "حفيزوف" كما أُطلق عليه ودُفن هناك تاركا عائلة مسيحية في أوكرانيا وعائلة مسلمة في مصر!

عرض والدان بالمكسيك توأمهما للتبني والانتقال للولايات المتحدة نظرا لفقرهما الشديد. نشأت "تمارا" يهودية في مانهاتن مع أسرة هودتها ونشأت أختها "أدريانا" كاثوليكية في ضاحية من ضواحي نيويورك.[147] صحيح أن المسافة بينهما لم تكن كبيرة بحساب الأميال، لكن حين التقت الفتاتان تبين أن المسافة كبيرة جدا بحساب الأديان؛ وصحيح أن بابا الفاتيكان بينديكت السادس عشر قد برأ اليهود من صلب المسيح وأن رئيس وزراء إسرائيل بعث له برسالة شكر، لكن النصارى في العالم ما زالوا يحملون اليهود دم المسيح.

أمضت عطيات الليل مسهدة، ولم يغمض لها جفن وهي تفكر في عرض مدام سجدة. إذا وافقت هل يعني ذلك أنها ستفقد عذريتها؟ لكن ما جدوى العذرية في وجود الفقر؟ ما أصعب أن تفقد المرأة بكارتها بمشرط الطبيب لا بفرج الحبيب، لكن فقدان غشاء البكارة بمشرط الجراحة أفضل من "أخذ الشرف" بيد الزوج وأمه وأخته كما فعلوا بصديقتها المسلمة "حبيبة" والتي ساءت نفسيتها بعد هذه الواقعة.

فقدان غشاء البكارة أفضل من ترقيعه... نعم فلولا الدكتور رامز ربما كانت عطيات تهيم في الإسكندرية وتمارس الرذيلة. لا شك أن أمها ستحزن كثيرا في قبرها. لطالما طلبت منها أن تحافظ على غشاء بكارتها. لا بأس فقد حافظت عليه ولم تسمح لرجل باختراقها.

ثم أن الغاية نبيلة وربما كانت سببا في إسعاد شخصين... لكن الدكتور رامز مسلم... أجل، لكنه أيضا طيب وعطوف. ثم أن هذا حمل غير تقليدي ولا تشارك فيه إلا بالغذاء الذي يدفع الدكتور رامز ثمنه. تعرف أسرة مسيحية ترسل أرزا وزيتا ودقيقا لبعض المسلمين الفقراء في الصعيد. ما الفرق بين هذه الحالة وحالتها كأم حاضنة؟!

ثم أن البتول حملت دون مباشرة... ثم أنها لم تفكر كثيرا في أمور الدين من قبل، بل وليست من المترددين على الكنائس والمتابعين للقداس والمواعظ... لقد سمعت الدكتور رامز يقول ذات ليلة أن أصوله صعيدية وأن أسرته من الأقباط الذين أسلموا. ربما كان من المنيا، وربما كان قريبا لها ومن نفس العائلة قبل أن تنزح أسرته نحو الشمال كما فعل العديد من أهالي الصعيد... يقول بعض الأقباط في بلدتها أن من أسلم منهم إنما فعل ذلك هربا من الجزية... لا بأس هربا من الجزية أو عن قناعة ليس ذلك هو المهم الآن. المهم أن تأخذ قرارا قبل شروق شمس الغد كما أخبرتها مدام سجدة.

ألح طيف أمها عليها تلك الليلة كثيرا. تذكرت كيف كانت تضع بيض الدجاج ليفرخ مع بيض البط، وكيف كانت أنثى البط تعامل كلاهما بنفس القدر من الاهتمام! تذكرت كيف كانت أمها تنتقي بيض الدجاج الملقح، وكم كان جميلا أن ترى الأفرخ لحظة خروجها من البيض.

9

بعد قرابة أسبوعين كانت عطيات ترقد في مركز الإخصاب بعد زرع الأجنة في أحشائها، بويضات سجدة الملقحة بمني رامز، وفوق رأسها مباشرة نسخة من لوحة "الشواديف" لمحمود سعيد. كان للمركز دائرة تلفزيونية مغلقة يذيع من خلالها أفلاما تبث الأمل وتدعو إلى التفاؤل. تابعت عطيات باهتمام أحد هذه الأفلام عن طائر البطريق وكيف أن الزوج يُبقي البيضة على قدميه ويدفئها ببطنه وهو واقف، وإذا أراد السير يفعل ذلك بمنتهى الحرص لأنه لو سقطت البيضة على الأرض لتجمدت على الفور ومات الجنين. بعد الفقس تعود الإناث من البحر وقد امتلأت حواصلها بالطعام لتغذية البطاريق الصغيرة بينما تتجه الذكور إلى البحر لتأكل لأول مرة منذ أربعة شهور!

حين عادت عطيات إلى الفيلا انقلب الحال فصارت ملكة غير متوجة

ومحط اهتمام الجميع. كانت سجدة نفسها أول من يسارع إلى خدمتها وإطعامها... ويبدو أن عطيات قد أحبت هذا الوضع الجديد لدرجة أنها سمحت لخيالها أن يشطح فترى نفسها "سيدة القصر" وربة الدار، لكنها سرعان ما كانت تُنبه نفسها إلى خطورة الانزلاق والتمادي في الأحلام فما هي إلا بضع أشهر وتغادر هذه الديرة والجيرة إلى المجهول. في يوم من الأيام كان لدى عطيات صداع شديد فهمت بتناول قرص مسكن أخذته من أم إبراهيم، لكن مدام سجدة أوقفتها في اللحظة الأخيرة ووبختها وطلبت منها ألا تتناول أي علاج إلا عن طريقها حتى لا يصاب الجنين بأي مضاعفات.

ذكرها هذا الوضع بفيلم "سلفني تلاتة جنيه" الذي تحفظه عن ظهر قلب، حين بلع علي الكسار (عثمان عبد الباسط) فص الخاتم وهو ينظفه، وكيف أحاطه الجميع بالرعاية في المستشفى، وطلبوا منه بلع قطنا مغموس بزيت الخروع. في النهاية حين استعاد الجواهرجي صاحب المحل الفص الثمين طرد عثمان من وظيفته! حسن مازال أمامها بعض الوقت في الفيلا. لتدع التفكير إذن ولتعش اللحظة وتستمتع بهذه الحركات والركلات التي بدأت تدب في أحشائها.

جلست يوما على الأريكة وبجوارها أم إبراهيم ومدام سجدة والدكتور رامز يشاهدون أحد البرامج الحوارية في التلفاز. تطرق حديث الضيوف الذين يمثلون المسلمين والأقباط والبهائيين والقاديانيين إلى المادة الثانية في الدستور التي تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي الأساس في التشريع وحق المواطنة ومدنية الدولة والشراكة في الوطن. دائما

ما تجري هذه الحوارات بعد أحداث الاحتقان الطائفي.

قال أحد الضيوف المسيحيين القادمين من الجنوب أنه لا يريد ضمانات من أفراد بل من الدولة؛ ولا يقبل أن يكون في ذمة المسلم، وإنما في ذمة الوطن فهذا هو العقد الاجتماعي الذي وصل إليه علماء الاجتماع وارتضاه الناس لأنفسهم. الوطن ليس كعكة ولا مشروع ولا وجهة نظر. انتقد الضيف المسلم أساليب "المسكوت عنه" ونظام الترضية ومجالس الصلح العرفية والحلول العشائرية التي تتم كل مرة في غياب وتغييب تام للقانون الذي ينبغي أن يكون فوق الجميع. قال البهائي الذي وضُعت له شرطة أمام خانة الديانة في بطاقة الهوية أن البهائيين يتعرضون للتضييق والاضطهاد والإقصاء في مصر.[148] وختم القادياني قائلا أنه يطالب الحكومة بالاعتراف بالطائفة القاديانية. نظرت سجدة إلى الدكتور رامز إلى سائلة:

– مين البهائيين دول يا رامز؟!

– دول جماعة بيؤمنوا بكل الرسالات والأنبياء والأديان والمعتقدات .بما فيها زرادشت وبوذا وكونفوشيوس.

– وعددهم قد إيه في مصر؟!

–يمكن عشر تلاف... حاجة كده.

– طيب والقاديانيين؟

– يعني ألفين كده.

– لأ يعني مين دول؟!

– دي طائفة نشأت أساسا في إقليم البنجاب بالهند علي يد واحد اسمه "ميرزا غلام" يعتقد إنه المسيح الموعود والمهدي المنتظر!

نظرت أم إبراهيم إلى عطيات قائلة لها:

– اللي بيحصل في الصعيد ده صحيح يا عطيات؟!

ارتبكت عطيات قليلا، لكنها تذكرت أن لهجتها وملامحها تدلل على أنها تنتمي لهذا الإقليم. استجمعت شجاعتها وهي ترد قائلة:

– يعني آه... أكيد.

في بداية الشهر الرابع توجهت عطيات بصحبة رامز وسجدة لمتابعة الحمل. يومها عرفت عطيات عن طريق جهاز الموجات الصوتية أنها حامل في توأم. انتحى الدكتور خالد بصديقه رامز جانبا ثم سأله:

– رامز... بالنسبة لباقي الأجنة نسيبها ولا نخلص منها ولا ننتظر بعد الولادة؟ القرار قرارك.

– باقي الأجنة؟! مش فاهم.

– إحنا لما نشطنا المبايض عند سجدة حصلنا على عدد كويس وكله ملقح. زرعنا أربعة في رحم عطيات والباقي موجود في بنك الأجنة محفوظ في النتروجين السائل في درجة حرارة 196 تحت الصفر، وممكن نحتفظ بيهم لأي فترة حسب رغبتك.

– وده أمان؟!

– تحت القفل وكل عبوة من الأجنة مسجلة بأسماء أصحابها.

- خلاص خلينا لبعد الولادة وبعدين تخلصوا منها، بس تحت إشرافك.

- أكيد... ما تقلقشي.

- طيب عندي سؤال.

- خير؟

- افرض إن الزوج توفى أو حتى الزوجة.

- فهمت. إحنا ما بنطلعشي الأجنة إلا في حضور الزوج والزوجة والتأكد من هويتهم وتوقيع بعض المستندات. سؤالك مهم لأن حصل مرة في أوروبا إن زوجة نجحت في زرع جنين بعد وفاة زوجها وبعد الولادة طالبت بالميراث لابنها أسوة بأخوته من أم سابقة.

درس الدكتور خالد الطب في فرنسا وعمل هناك لبعض الوقت. في فرنسا وجد خالد أن عقل الإنسان وإرادته وفضوله لا حدود لهم. كان الاستنساخ هو حديث الساعة في العالم بأسره، وراح خالد يسأل نفسه: لو تم استنساخ إنسان فكيف سيتعامل معه القانون؟! وهل سيكون له روح؟! وإذا مات كيف سيُحاسب؟! مر خالد بأوقات صعبة في فرنسا حين تعرض لأمور تتعارض مع الدين مثل المساعدة على الانتحار Assisted suicide واستخدام الخلايا الجذعية المستخلصة من المشيمة في العلاج... ولأن أشياء كثيرة مما تعرض لها خالد وعمل بها قد تتعارض مع مبادئه وقيمه، فقد رأى أن تكون المرجعية في عمله إلى العلم وحسب، فإذا تبين خطأها ظل الدين بمنأى عن هذه الأمور الجدلية. وبعبارة أخرى عاد خالد من فرنسا يدع ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

في الشهر السابع من حملها وضعت عطيات توأما بولادة قيصرية. خرج من رحمها بنتان جميلتان. طار قلب سجدة من الفرح حتى كاد أن يتوقف. أخذ رامز ينظر إلى الطفلتين في حب واشتياق. أما عطيات فقد انتابها شعور مختلط بالسعادة والحب والكآبة والحزن. أدركت أن انتهاء نفاسها يعني موتها لأنه سيتعين عليها أن تغادر الفيلا وتترك أشخاص أحبتهم وأحبوها.

حين كانت عطيات تعصر اللبن من صدرها وتفتح الصنبور لتأخذه المياه إلى بلاعات الصرف كانت سجدة وأم إبراهيم ترضعا إيزيس وميريت بالألبان الصناعية. رفضت سجدة أن ترضعهما عطيات ووقفت حائلا دون تطور العلاقة بين الأم الحاضنة والطفلتين. على أي حال، لا يمكن لعطيات إرضاعهما بشكل جيد لأن حلمتيها مقلوبتين أو معكوستين.[149]

في يوم من الأيام تسحبت عطيات إلى مخدع القطتين الصغيرتين، وراحت تنظر إليهما في حب وحنان وتتعجب من قدرة الله في خلق التوائم السيامية. يا له من إحساس جميل أن يخرج من رحم امرأة شيئا صغيرا وديعا يتنفس ويتحرك! يا له من إحساس أجمل أن يكون هذا الكائن من ماء الرجل وبضعة زوجته!

نعم... ما أجمل الحياة حين يرزق الله زوجين بتوأم متماثل يجنبان الأم عناء تكرار الحمل والولادة ويصيران سندا وعونا لوالديهما في الدنيا. يبتسم أحدهما فيضحك الآخر؛ يتوجع أحدهما فيبكي الآخر؛ يخطئ أحدهما فيبادر الآخر إلى لصق التهمة بنفسه؛ يختبر أحدهما وينجح

الآخر؛ يغني أحدهما ويرقص الآخر؛ يأكل أحدهما فيشبع الآخر؛ يشرب أحدهما فيرتوي الآخر؛ يمرض أحدهما فيعتل الآخر؛ يسأل أحدهما ويجيب الآخر...

بعد انقضاء فترة النفاس خرجت عطيات من الفيلا ومعها دفتر توفير بنكي فيه سبعة آلاف جنيه وقلب مكلوم يحوي سبعين ألف جرح. هل يعدل دفتر التوفير الذي ظفرت به ابتسامة من إيزيس أو ميريت؟! بكت بكاءا مرا وهي تودع الطفلتين وأم إبراهيم ومدام سجدة وزوجها الدكتور رامز الذي شد على يدها قائلا:

- ابقي اتصلي وطمنينا عليكي ولو احتاجتي أي شيء هتلاقينا جنبك.

- إن شاء الله.

حين اقتربت عطيات من باب الفيلا نادتها أم إبراهيم ثم أخذتها في حضنها مرة أخرى وأخذت منها صورة الطفلتين التي وضعتها عطيات في الجراب الخارجي لحقيبتها:

- لا والنبي يا أم إبراهيم. ما تزعلنيش منك. إلا دي.

- معلشي يا بنتي. أنا باعمل كده علشان بحبك. بصي لقدام. بكره ربنا يعوض عليك. أنا هاديك حاجة أجمل من الصورة.

أخرجت أم إبراهيم مصحفا صغيرا وناولته لعطيات. ترددت الأخيرة في قبوله، لكنها أخذته شاكرة وذهبت لحال سبيلها وهي تجفف دموعها. انطلقت عطيات نحو سكنها بشارع السكة الجديدة. رفضت أن يوصلها

الدكتور رامز وقررت الاعتماد على نفسها. كان الدكتور رامز هو من أخذ لها هذه الشقة إيجار جديد مقابل 300 جنيه في الشهر، كما حصل لها على عمل بصيدلية في شارع السبع بنات بنفس المبلغ تقريبا.

في طريقها من لوران للمنشية في السيارة الأجرة راحت عطيات تغمض عينيها وتفتحهما على مشهد البحر وأمواجه التي تشبه إلى حد كبير أيامنا في هذه الحياة. ننام كل يوم على أمل أن نجد الفرحة، ثم نفتح عيوننا على نفس الأثاث ونفس المتاع ونفس الأشياء. أيام محبطة وحياة زائفة. لماذا لا نحصل على ما نريد؟! لماذا لا نحصل على الوظيفة التي ننشدها وعلى المسكن الذي نبتغي وعلى المرأة التي نشتهي؟! لماذا لا يمكننا أن نستعيد لحظة واحدة من الماضي حتى لو كانت اللحظة السابقة مباشرة؟! لماذا نؤجل أحلامنا أو نتنازل عنها؟! لماذا نحلم بالفرح وننال الدموع؟! لماذا كل هذا البكاء في حياتنا؟! لماذا نتألم ونتعذب ونتوجع ثم نموت ويموت معنا أفكارنا وعلومنا ولغاتنا؟!

لبسنا ثوب العمر لم نستشر.[150] يا صديقي لست أدري ما أنا/ أو تدري أنت ما أنت هنا؟!/ أنت مثلي تائه في غربة/ وجميع الناس أيضا مثلنا/ نحن ضيفان نقضي فترة/ ثم نمضي حين يأتي يومنا/ لست أدري كيف نمضي أو متى/ كل ما أدريه إنا سوف نمضي/ في طريق الموت نجري كلنا/ في سباق بعضنا في إثر بعض/ كبخار مضمحل عمرنا/ مثل برق سوف يمضي مثل ومض/ قل لمن يبني بيوتا هاهنا/ أيها الضيف لماذا أنت تبني؟/ قل لمن يزرع أشواكاً كفى/ هو نفس الشوك أيضاً سوف تجني/ خفض الرأس وسر في خشية/ مثلما ترفع رأسا سوف تحني.[151]

نستيقظ كل يوم من النوم ونسأل أنفسنا أين نحن؟! وهل نحن على قيد الحياة؟! وهل هذه هي الحياة؟! لماذا تُسمى حياة وتنتهي بالموت؟! وهل نحن موجودون فعلا أم أن حياتنا لا تعدو أن تكون "فوتوشوب"؟! وإلى متى سنظل هنا؟! وكيف سيكون الوضع هناك؟! ومتى يكون رحيلنا؟! ما هي آخر كلمة سننطق بها؟ ما هو آخر شخص سنراه؟ ما هو آخر طعام سنتناوله؟ وهل يجب أن نذهب؟! لماذا لا يأتي هذا الغد الذي يقولون عنه أنه أفضل؟! لماذا يأتي غد خال الوفاض فنضطر إلى أن ننتظر غدا غيره؟! نمضي كالحملان في طريق مرسوم ونسأل في خجل مع القطيع: "كم غدا تبقى لنا في هذه الحياة؟!"

لماذا لم تُولد عطيات لتجد نفسها بيضاء بشعر أصفر وعينين واسعتين؟! لماذا لم تُولد لتجد نفسها ابنة لتاجر موسر أو حاكم محصن، تأمر فتطاع وترفع إصبعها فيهم الجميع للمثول بين يديها وتلبية رغباتها؟! لماذا لم تنشأ لتجد أناس ينادونها بنيفين أو نسرين؟! لماذا لم تشب لتجد الشباب يتزاحمون حولها ويتهافتون لنيل رضاها.

انتبهت عطيات على صوت مسجل السيارة الذي خرجت منه هذه الكلمات على لسان أحد الشيوخ: "من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ من شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة" في إشارة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم. حين اقتربت السيارة من محطة الرمل كانت هناك مظاهرة بالقرب من مسجد القائد إبراهيم اعتراضا على الترخيص ببناء كنيسة جديدة. فجأة صاح السائق:

– هما الجماعة دول عايزين يورثوا البلد... مش مكفيهم كل الكنائس اللي موجودة. وبعدين دول بيصلوا وهما واقفين وبالجزم من غير وضوء، يعني مش محتاجين مساحة كبيرة ولا حاجة!!!

أخذ راكب آخر بخيط الحديث قائلا:

– ده بيقولوا إن العدرا ظهرت في الوراق في كنيسة كده مش عارف اسمها إيه!

تطوع راكب ثالث بالتعقيب قائلا:

– يا عم إنت بتصدق الكلام ده! ده ليزر... كوري... بانورا ما حرب أكتوبر... إنت ما بتشوفشي افتتاح مسابقات كاس العالم... دي حاجات كده زي الأطباق الطايرة.

تدخل رابع مضيفا:

– الجماعة دول مش ها يهدوا إلا ما يكونوا دولة ليهم.

علق راكب أخير على الحديث قائلا:

– كلام مظبوط... ده حتى القساوسة بتوعهم لابسين اسود من ساعة ما المسلمين دخلوا مصر حداد وحزن على اللي بيقولوا عليها بلدهم.[152]

10

كان اليوم الأول لعطيات في شقتها الجديدة التي تتكون من صالة وحجرة نوم ومطبخ وحمام صعب للغاية. راحت تتجول في أرجاء الشقة الصغيرة وبين أثاثها الذي ابتاعته آنفا مستعملا من سوق الجمعة. اُضطرت إلى أن تقلب مفصلة باب حجرة النوم لتجعله يفتح للخارج حتى تتمكن من وضع الدولاب الذي تبين أنه مصاب -على الأرجح- بالنمل الأبيض.

لم تكن المشكلة في التباين الواضح بين فخامة الفيلا وتواضع البيت الجديد، بل في فقدان الصحبة والعشرة ورائحة أنفاس الناس. لم يُصبرها تلك الليلة على الوحدة ولوعة الفراق سوى طيف البتول "أم النور"، أطهر نساء العالمين... السلام عليك يا مريم... مباركة أنت في النساء[153]... إليك الورد يا مريم.

في الصباح توجهت عطيات إلى الصيدلية التي تقع بجوار عدد كبير من محلات بيع الأدوات الكهربية. كانت مسئولة عن بيع أدوات التجميل ومستلزمات الحلاقة وأصناف أخرى عدا الدواء. أخرجها العمل من كآبة الوحدة ووجع الغربة. تعلمت "السيرما" وأمضت الأمسيات تصنع المفارش واللوحات أمام التلفاز. كانت تبيع شغلها لمحل في المنشية مقابل مكاسب مالية ضئيلة.

احتفظت لنفسها بلوحتين إحداها لنعامة شاخصة إلى بيضتها الكبيرة. يُقال أنه لو حولت النعامة بصرها عن البيضة لفسدت! تحتفظ الكنيسة الأرثوذكسية ببعض بيض النعام إشارة إلى أن عين الرب تظل دائما شاخصة نحو المؤمنين، وأنها ترعاهم وتهتم بهم وبخلاصهم.[154] أما اللوحة الثانية فكانت لبضع أسماك من البلطي الجاليلي.[155] لا تدري، لكن البلطي بالخيوط الفضية والذهبية كان مبهرا.

في يوم من الأيام سمعت عطيات طرقا على الباب، لكنها كذبت أذنيها. من سيطرق بابها؟! تكرر الطرق فظنت عطيات أنه ربما كان محصل الكهرباء أو المياه أو ربما طفل يلهو أو شخص قرع الباب الخطأ أو إحدى البائعات الجائلات الصينيات التي تعج بهم الجمهورية هذه الأيام. فتحت عطيات الباب في وجل فوجدت وجها مشرقا مبتسما ويدا ممدودة بطبق. شكرت عطيات جارتها ودعتها للدخول. لبت الأخيرة الدعوة بأريحية قائلة:

– كل سنة وأنت طيبة. أنا محاسن جارتك.

– وإنت طيبة... بس إيه المناسبة.

- عاشورا.
- متشكرة جدا.. أنا عطيات.
- العفو يا عطيات يا حبيبتي... الناس لبعضيها.
- بس أنا مسيحية.
- طيب وماله يا ختي... هو انتوا مابتكلوش.
- لا بناكل.
- محمد نبي وعيسى نبي وموسى نبي، وكل من ليه نبي يصلي عليه... وبعدين أمة لا إله إلا الله كلها بتاكل العاشورا.
- طيب وإيه حكايتها بقى؟!
- والله علمي علمك... مش عارفه. يمكن حاجة ليها علاقة بسيدنا الحسين... أقولك... أهي حاجة كويسة والسلام.[156]

كانت محاسن طبق مهلبية في بياضها وحلاوتها. تمشي فيهتز كل جزء في جسمها. لم تتلق أي نوع من التعليم. لا تعرف أشياء كثيرة، ولا تشغل بالها بالأمور الجدلية، وعندما يستعصي عليها أمر تنهي الحديث قائلة "دع الملك للمالك" و "دي حسبة برما"[157].

يتمنى كثير من المفكرين الذين ابيضت شعورهم ونزفت عقولهم وتيبست وجوههم وضاع نظرهم وهم يبحثون في مسألة ما لو امتلكوا هذا العقل البسيط الذي يقبع في رأس محاسن ويستمتع بوجوده هناك. لا يمتلك كثير من الناس القدرة على قبول الأشياء كما هي والتسليم والانقياد والإذعان لما هو خارج نطاق الممكن. صدق علي كرم الله وجهه حين قال

"لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه."

كانت محاسن شخصية اجتماعية تحب الناس وتحب مشاركة جيرانها الطعام، لكنها أيضا كانت نمامة بامتياز حتى نالت لقب "رويترز" عن جدارة واستحقاق. كان زوجها المعلم خفاجة فسخاني في سوق الحقانية، واعتاد أن يتزوج كل سنة من امرأة مختلفة بعد شم النسيم وتدفق الأموال من هذا الموسم. بما أن الربيع هو موسم التزاوج عند الكثير من الكائنات فقد أراد خفاجة أن يشارك في "كرنفال" العرس الجماعي الذي يضج به الكون.

الكل هنا في الإسكندرية، بل في مصر كلها يشتري الفسيخ والسردين والرنجة والملوحة في شم النسيم، ذاك العيد الفرعوني الذي يجمع بين كل المصريين دون تمييز ويخرجهم إلى الحدائق والمتنزهات حيث يمرحون ويلعبون ويلونون البيض ويأكلون الملانة والترمس والحلبة والفول النابت بالشطة والليمون. يأتي شم النسيم الفرعوني متزامنا مع الحصاد والاعتدال الربيعي. يحتفل اليهود بعيد الفصح في هذا التوقيت حيث يعتقدون أن موسى عليه السلام خرج فيه من مصر؛ أما النصارى فإنهم يحتفلون بعيد القيامة، فحياة الإنسان – طالت أو قصرت– هي ذاك الأسبوع الذي يبدأ بسبت النور حين يرى الجنين الدنيا وتنتهي بالآلام حين يتركها وسط بكاء المحبين، وكما يتجدد أديم الأرض في الربيع وتُبعث فيه الحياة مرة أخرى تتجدد جلود الخاطئين وتكتسي بالحياة لأن عريس السماء قد سكب دمائه ليُحيي الأرض اليابسة ويُحيي الأمل في قلوب العصاة.

كان المعلم خفاجة عصبي المزاج... يسب ويشتم ويضرب. كان لا

يحب "خلفة البنات"، لكنه لم يُرزق بصبي حتى الآن لا من محاسن ولا من غيرها. كان خفاجة يضغط على بناته لترك الدراسة ويسعى لزواجهن مبكرا ليتخلص منهن. أحست زوجاته بالقهر فلا حول لهن ولا قوة أمام تعسفه وقسوته.

أحب خفاجة محاسن. يطلق ويتزوج كيفما يشاء، لكنه لا يقترب منها، وكانت محاسن راضية بهذا الوضع. تعلم أن زوجها فحل وأكيل ولديه طاقة فائضة. ماذا يفعل رجل كهذا إذا حاضت امرأته؟! ثم أنه قليل البخت في زيجاته فواحدة اتضح أنها مخبولة وأخرى باردة ولا تحب الجنس وثالثة تبتزه وتسرق ماله لتعطيه لوالديها. كانت محاسن واثقة من نفسها بشكل كبير وختمت حديثها قائلة: "القديمة تحلى ولو كانت وحلة... هو كده يلف يلف ويرجع يبات في حضني."

مع مرور الأيام توطدت العلاقة بين عطيات ومحاسن تماما كما بين "الست وهيبة" وجارتها "أم ميخائيل" في رواية إدوار الخراط "ترابها زعفران". كانت محاسن تدعو عطيات دوما لطبق الرنجة المبطرخة والتي كان ينتقيها لها زوجها. كانت محاسن تقطع الرنجة قطع صغيرة ثم تضع فوقها الزيت والليمون والطحينة والبصل والطماطم والفلفل الأخضر. أحبت عطيات بطارخ البوري. لم تكن تعلم أن "البطروخ" هو بيض السمك حتى أخبرتها محاسن.

أحبت عطيات محاسن حبا صادقا من القلب. كانت محاسن مختلفة حقا. أحست بتعاطفها مع الآخرين ومشاكلهم على عكس كثيرين من الناس الذين يشعرون بسعادة يجاهدون لكبتها حين يرون المصائب تحط

على أترابهم من بني البشر. تحدثت الجارتان مع بعضهما في كل شيء إلا الدين، ليس عمدا بل لأنهما كانتا على سجيتهما ويعبدان الله دون صياح. الدين أبسط من أن يعقده أحد، أكبر من أن يضخمه أحد، أوضح من أن يفلسفه أحد.

لو أن محاسن وعطيات أُعطيتا ملف الوحدة الوطنية لحققتا فيه نجاح يفوق شيخ الأزهر وبابا الكرازة لأن عقليهما كانا خاليين من عبء المعرفة وطغيانها وعلوم الفقه واللاهوت وأطروحات العلم وجدل علماء الشريعة واللاهوت.[158] يقول جلال الدين الرومي: "العقل والذكاء والدهاء بضاعة إبليس؛ العشق والحب رأس مال أبينا آدم." لا يحتاج الأمر حربا عالمية تطول ألسنتها مصر ليخرج لنا من جديد المقدس دميان والشيخ مجد الدين؛[159] لا يحتاج الأمر إسطاسية[160] جديدة تتجرع ألم فقد الضنى في شخص أم خالد سعيد أو مينا دانيال؛[161] لا نحتاج إلى مأدبة ضخمة ومؤتمر للحوار الوطني وإنشاء مجمع للأديان والتقريب بينها؛ لا نحتاج إلى السياسة "لعن الله ساس ويسوس وسائس ومَسوس وكل مشتقات السياسة."[162]

نحتاج فقط محاسن وعطيات وحصيرة من البلاستيك فوقها طبق رنجة بالسلطة وكوب من الشاي المغلي بالنعناع. لا شك أن مشاركة الطعام تقرب كثيرا بين النفوس. الحقيقة أن القلوب هي من تشبع من هذه "القعدات والغديوات البسيطة". صحيح أن محاسن كانت تسمي الله بصوت خفيض قبل أن تتناول طعامها؛ وصحيح أن عطيات كانت تصلي في سرها كما علمتها أمها "أبانا الذي في السماء... ليتقدس اسمك، ليأت

ملكوتك، لتكن مشيئتك... امنحنا خبز البركة وكأس الخلاص واملأ قلوبنا بالبهجة والفرح..." لكن كلاهما كان ممتنا لوجود الآخر بجانبه ومشاركته له الطعام والشراب.

يقول علماء المنطق أن المقدمات الفاسدة تفضي إلى نتائج فاسدة. صحيح... ومما يُفسد المقدمات تعميم لا يشمل وتخصيص لا يجوز كأن نقول مثلا كل الأقباط من أصل فرعوني لأن منهم من ينتمي لأصول يونانية ومالطية وفارسية وإيطالية وأفريقية... أو أن نقول أن كل المسلمين في مصر عرب لأن منهم من ينتمي للقبط؛ أو أن نقول أن كل القساوسة والشيوخ ملتزمون لأن منهم من يدعوا للفتنة؛ أو أن نقول أن كل الأقباط والمسلمين متسامحون لأن منهم متعصبون. وبالرغم من ذلك يقف المنطق حائرا حين نقول أن كل الأقباط المسيحيين والأقباط المسلمين مصريون.

في يوم من الأيام فرشت محاسن صفحتين من الجريدة المنتفخة ووضعت عليها الرنجة والليمون والبصل الأخضر وجلست وعطيات لتناول الطعام. قالت محاسن وهي تناول عطيات الأطباق:

– رمضان السنة دي جاي في الحر وما بنعرفشي ناكل الحاجات الحرشة، بس ليكي عليا نشعبن بأكلة معتبرة.

– نشعبن؟!

– نشعبن يعني ناكل رنجة وتونة في آخر يوم من شهر شعبان قبل الصيام.

– آه.

- إيه ما عندكوش الكلام ده؟!

- لا عندنا بنسميه "الرفاع"، قبل الصيام الكبير بيوم، و بناكل فيه حاجات كتير فيها روح.

حين همت عطيات بطي صفحتي الجريدة لإلقائها في سلة القمامة تسمرت عيناها على إحدى الصور في صفحة الوفيات. تجمدت في مكانها و لم تحرك ساكنا. كانت الصورة للمتنيح قسيس قريتهم وتحتها هذه الكلمات "مع المسيح ذلك أفضل جدا... طوبى لمن اخترته وقبلته يا رب ليسكن ديارك إلى الأبد... انتقل للأمجاد السماوية..."

كان القس عبد المسيح قد "شُلح" أي عُزل منذ ثلاثة شهور بسبب فضيحة مالية تتعلق بمشروعات الدير. كان الرجل قد أُدين أيضا في فضيحة أخلاقية مشينة حيث قام بغسل أرجل النساء في قداس "خميس العهد". أكد القس لهن أن الإنجيل يحض على ذلك، لكن الحقيقة أن المسيح لم يفعل هذا الشيء إلا مع تلاميذه الذكور.

تغير لون وجه عطيات حين تذكرت ما حدث لها ولأخيها ولصديقتها حسناء. لاحظت محاسن ما طرأ عليها. حكت عطيات لمحاسن عن قصتها في القرية. بكت عطيات كثيرا فأخذتها محاسن في حضنها وهي تردد "خلاص... صلي على النبي." شعرت عطيات براحة كبيرة حين أخرجت هذا الهم من صدرها.

وكما أعطت محاسن كتفها لعطيات لتبكي عليه ردت الأخيرة الجميل حين أفسحت لها المجال لتحكي عن مشكلة "خلفة البنات" التي تؤرقها

وتُزيد الجفاء بينها وبين زوجها. كانت الأمور قد تأزمت بينهما قليلا بعد إنجاب البنت الأخيرة وصراخ محاسن في وجه زوجها قائلة: "اللي زرعته طلعتهولك[163] واللي حطه دلدولك جبتهولك". كانت محاسن محقة ولا شك من وجهة نظر العلم، لكن لو أقسمت لخفاجة على المصحف والإنجيل والتوراة والزبور أن الرجل هو من يحدد نوع الجنين ما صدق.

سمعت عطيات أثناء قيامها بعملية الحقن المجهري أنه يمكن تحديد نوع الجنين هذه الأيام فاقترحت على محاسن هذا الأمر، لكن المعلم خفاجة رفض هذا الكلام قائلا لزوجته: "إزاي يا ولية يا مجنونة عايزانا نعمل كده... إيه القرف ده... حيوانات منوية وتعري نفسك قدام الدكاترة، وكل من هب ودب يتفرج..." وبقدر ما أحزن محاسن رفض زوجها بقدر ما شعرت بالسعادة لأنه ما زال يحبها. في اليوم التالي ختمت حديثها مع عطيات قائلة: "أصله بيغير عليا قوي... ده حتى بيبعت يجيب أم هاشم الداية علشان تولدني في البيت"!!!

في ظهيرة يوم عاصف دخل شاب أنيق الصيدلية فلم يجد غير عطيات فهم بالعودة أدراجه، لكن الصيدلي خرج من غرفة تركيب الأدوية قائلا:

– أيوه؟

– عايز توبس... بس بلاش الصيني الله يخليك.

شيء ما جعل عطيات تنظر إلى يدي الشاب فلم تجد "دبلة" لا في اليمين ولا في اليسار. شعرت عطيات بالحرج فأشاحت بوجهها وراحت تنظف الرفوف، لكنها سمعت الشاب يقول للدكتور بهاء:

- واحد كمان من فضلك.

لف الدكتور بهاء علبتي الواقي في ورقة "جورنال" ثم ناولها للشاب الذي دفع الحساب وانصرف شاكرا.

مع مرور الوقت لاحظت عطيات أن شابا في الورشة المقابلة لمنزلها يرقبها كلما نزلت من البيت أو عادت إليه. لم تلتفت كثيرا لهذا الأمر أو قل لم تكترث له. في يوم من الأيام انفجرت ماسورة المياه في بيتها فاستغاثت بالناس. هم نفس الشاب لنجدتها بصحبة صديق له. أفلحا في غلق محبس المياه العمومي ثم ذهب الشاب المتيم بعطيات إلى شارع إسطاسي حيث أحضر سباكا بينما بقى الآخر في الشقة يتفرس في جسمها المبتل وشفتيها المفتوحتين دائما وكأنها تدعوك إلى تقبيلها. بعد أن زال الهلع عن عطيات بإغلاق محبس المياه نظرت إلى الشاب الذي يحدق فيها وتذكرت أنها رأته من قبل، لكن أين؟! بعد أن أتم السباك العمل شكرت عطيات الشابين وأصرت على محاسبتهما. تطوع المتيم بتقديم نفسه قائلا:

- أي خدمة. الناس لبعضها. أنا برسوم... بشتغل في ورشة الشماسي اللي في وشك، وده متولي شغال في الورشة اللي جنبي.

- فرصة سعيدة... وأنا عطيات.

- عطيات إيه... ما تأخذنيش أصل شوفتك في الكرازة.

- عطيات جاد... أيوه أنا مسيحية.

لم تعد عطيات بحاجة إلى أن تُخفي دينها. مضى وقت طويل على خروجها من المنيا، وأما الاتصالات بينها وبين سكان الفيلا بلوران فقد

قلت بل قل توقفت، ثم أنها تفكر في الزواج. لمعت عينا برسوم من الفرحة ونظر إلى صديقه متولي ولسان حاله يقول له "مش قلتلك". توقف لبرهة ثم اتجه نحو الباب وخلفه متولي الذي ملأ عينيه من عطيات للمرة الأخيرة قائلا لها:

- نورت الشارع.

في هذه اللحظة فقط تذكرت عطيات أين رأت متولي... نعم إنه الشاب الذي أتى من بضعة أيام خلت ليشتري "الكوندوم" من الصيدلية. نظرت إليه عطيات، لكن دون خجل هذه المرة ثم ردت قائلة:

- شكرا... أنا عطيات باشتغل في صيدلية "الشفا" اللي في شارع السبع بنات.

تسمر متولي للحظات في مكانه وكأنه يحاول أن يتذكر أين رآها ثم ولى شطره نحو الباب وهو ينادي على برسوم.

كان برسوم شابا طيبا و"على نياته". كان أميا كمن خرج من رحم أمه. لم يسبر غور التفكير. لم تثر عقله غرائب الحياة و لم يكن استثنائيا في أي شيء. لم يتلق أي نوع من التعليم. لا يفك الخط بالمرة، بل أنه يحفظ أرقام هواتف أصدقائه ومعارفه بالشبه! سكن والداه قبل وفاتهما حوشا بحمام مشترك في منطقة "السيالة". عمل في ورشة لتصنيع الشماسي وكراسي البحر في شارع السكة الجديدة. كان ينام في الورشة ويقضي حاجته بدورة المياه التابعة للمسجد المجاور والتي تقع خارجه؛ وحين قرر القائمون على الجامع غلق دورة المياه أعطاه الشيخ عبد النبي إمام المسجد نسخة من مفتاحها.

كان العمل في الورشة يدر عليه دخلا طيبا، لكن انتشار الكراسي البلاستيك القبيحة على الرمال أصاب المهنة في مقتل. حتى صناعة المظلات واجهت ركودا حين انتشرت على الشواطئ شماسي الدعاية لشركات المياه الغازية. في الآونة الأخيرة اقتصر عمل الورشة على صنع أغطية السيارات، وحتى هذه لم تسلم من منافسة أغطية النايلو ن المضادة للمطر.

طال الكساد أيضا ورشة "ألمونيوم الدق" التي يعمل بها متولي فقد خسرت الكثير من زبائنها بعد أن انتشرت الأكواب البلاستيك والحلل "البرستو والأركوبال والتيفال"، واقتصر عملها على تصنيع عدد القهاوي أو تركيب يد لبراد شاي أو "كنكة" أو خلافه. كره متولي هذه المهنة وحاول أكثر من مرة ترك الورشة والبحث عن عمل آخر. عمل لفترة بالبقشيش في محطة خدمة سيارات، ومرة أخرى في مصنع ببرج العرب أجبره صاحبه على توقيع استمارة (6) قبل أن يبدأ العمل![164]

كره برسوم البلاستيك والنايلون بشكل كبير. أفقدت هذه المواد المئات بل الآلاف وظائفهم، لكن هذه هي سنة الحياة. لا يمكن أن تقف أمام التطور. الفيديو أصبح اليوم في خبر كان بعد أن كان الناس يستدينون لشرائه. الكمبيوتر أنهى الآلة الكاتبة. الهاتف المحمول ضرب الساعات والمنبهات في مقتل. البريد الإلكتروني أطاح بالبريد العادي والفاكس إلى حد كبير. أشياء كثيرة أصبحت في ذمة التاريخ.

أخبره صديقه نسيم الذي يعمل في الميناء وينتمي للطائفة الإنجيلية في معرض حديثهما عن الألياف الصناعية واللدائن والمواد الجديدة أن هناك

دمي مطاطية تُباع في الخارج، وأنه بمجرد توصيلها بالكهرباء تُملأ بالهواء وترتفع درجة حرارتها وتصدر أصوات جنسية مثيرة وموحية. لا تتوفر هذه الدمي في مصر بطبيعة الحال، لكن هناك من يحضرها من الخارج عن طريق المراكب التي تتردد على الإسكندرية.

راقت الفكرة لبرسوم لأنه لا يقدر على نفقات الزواج. لو أن في النصرانية زواج مسيار لتزوج. منذ أسبوع أغلق ومتولي عليهما الورشة مساءا وشاهدا "فيلم ثقافي" على موبايل الأخير. كانت إحدى لقطات الفيلم تدور في دير للراهبات فتغير وجه برسوم. اعتذر متولي له مؤكدا أنه لم يره من قبل. ورغم ذلك فقد اتفق الصديقان على تخطي هذه اللقطة وعدم إفساد متعة مشاهدة باقي الفيلم.

منذ يومين اصطحبه متولي لمنزل عاهرة في خرائب "الكرانتينه". العجيب أن هذه المرأة تتخفى وراء نقاب. حين سألها متولي عن ذلك أجابت أن شعرها مجعد ووجهها به حروق، لذا فهي تواريه خلف النقاب حتى لا يتأذى الناس من شكله! عندما عرفت المرأة اسم صديق متولي واستنتجت ديانته رفضت معاشرته![165] تقول أنها مومس، لكنها صاحبة مبدأ! لا تضاجع غير المسلمين، لكنها كانت رحيمة ببرسوم فسمحت له بالفرجة! فعلا جلس برسوم على مقعد مكسور في ركن من أركان الحجرة كالتلميذ الخائب وهو يشاهد هذه العاهرة تحلب متولي. على أي حال لاحت لبرسوم بارقة من الأمل مع قدوم عطيات إلى الشارع فهي مسيحية مثله و لم تُكمل تعليمها ولديها مطرح وأثاث وعمل.

في يوم من الأيام قابل برسوم عطيات بعد انتهاء عملها بالصيدلية ثم

عزمها على الغداء من عربية أكل تقف في الشارع. كان صاحب العربية يبيع سندوتش يُسمى "الصاروخ" وهو عبارة فول وفلافل وبطاطس محمرة وباذنجان مقلي وعليهم الشطة والطحينة والمخلل والبصل. اشترى برسوم واحد لكل منهما بالإضافة إلى سندوتش "التحلية" من عربية مجاورة ويتكون من حلاوة طحينية ومربه بيتي وقشطه ويُطلق عليه "ديناميت".

إجمالي عدد السعرات الحرارية في "الصاروخ" و"الديناميت" ربما يتجاوز الألفين، لكن الناس في المناطق الشعبية أو ممن يأكل في الشارع لا يهتمون بهذه الأشياء. لا أحد يعذب نفسه ومعدته بالطعام مثل المصريين! بالقرب من هذه العربية يقف رجل بأنبوبة "بوتجاز" يصنع الفطير ثم يرشه بالسكر أو يضع عليه "الجبنة القديمة". عدد كبير من المصريين يأكلون في الشارع؛ عدد كبير من المصريين ينامون في الشارع؛ عدد كبير من المصريين يعيشون في الشارع!!!

بعد تناول الطعام توجه برسوم وعطيات إلى محل عصير بالقرب من ميدان المنشية، وما إن اقتربا من المحل حتى تراجعت عطيات. أحست أنها رأت الشاب الذي يقف على ماكينة العصر من قبل. يبدو أنه من قريتها وأنه نزح للشمال كما فعل غيره حيث يقصدون الإسكندرية ليعملوا في المعمار والقهاوي ومحلات عصير القصب. لم ينتبه الشاب لوجودها، وقررت عطيات أن تنتظر برسوم في الحديقة التي عاد إليها بعد هنيهة ومعه العصير في كيس بلاستيك رُبط حول شفاط!

جلس برسوم وعطيات يتحدثان بالقرب من تمثال محمد على. لم يقل برسوم كثيرا واكتفى بالنظر إلى عطيات وفرس محمد على الذي يتمتع

بقضيب وخصيتين كبيرتين. أما عطيات فراحت تتابع الباعة الجائلين وهم ينادون على "بدلة حمادة" ويعرضون لعب الأطفال على المارة في الشارع.

فعلا تقدم برسوم لخطبة عطيات التي وافقت لأسباب منطقية فهي ليست بارعة الحسن وفرصتها في الزواج قليلة لقلة معارفها، كما أنها مقطوعة من شجرة تماما مثل برسوم، ثم أنها هاربة من الصعيد وتعاني الوحدة، ثم هناك هذا الجرح الكبير في بطنها. يمكنها أن تخبر برسوم بأنها أجرت جراحة لإزالة حصوة من المثانة. لن يكترث برسوم لهذا الأمر، بل تكاد تجزم أنه لا يعرف حتى إذا ما كانت تحتفظ بغشاء بكارتها من عدمه فهو طيب لحد العبط وينطبق عليه وصف "لا يدري ولا يدري أنه لا يدري" أو ما يطلق عليه المصريون "طيب لحد العبط" أو "هليهلي".

صحيح أنه يكبرها بسبع سنين؛ وصحيح أنه لا يعرف الألف من "كوز الدرة"؛ وصحيح أنه يعاني من النسيان وله ذاكرة مثل المنخل؛ وصحيح أنه لا يمتلك شيئا قيما بين أذنيه ولا يرتقي مصعده إلى الدور الأخير؛ وصحيح أن لديه حول بسيط في عينه اليسرى؛ وأن بعض بقع "التينيا" تنتشر في رقبته؛ وصحيح أنه لا يتكلم كثيرا، وعندما يتكلم يكون صمته أفضل من حديثه؛ وصحيح أنه لا يغسل وجهه بعد الاستيقاظ ولا يمشط شعره ولا يربط سيور حذاءه ويرتدي أشياء عجيبة، وملابسه متنافرة ومتسخة؛ وصحيح أنه لا يهتم بنظافته الشخصية ولا يغسل يديه بعد الأكل؛ وصحيح أنه كثير العرق ورائحة قدميه لا تطاق؛ وصحيح أنه ينظف أسنانه ومنخاريه بأظافره الطويلة المتسخة؛ وصحيح أنه يتجشأ ويبصق

في الشارع؛ وصحيح أنه يطفئ سجائره فيما تبقى من أكواب الشاي؛ وصحيح أنه يمضغ الطعام بصوت مرتفع ويلحس ملعقة الشاي بعد تقليبه؛ وصحيح أنه يجز على أسنانه وهو نائم محدثا صريرا مزعجا؛ وصحيح أنه فقير ومعدم، لكنه أفضل الموجودين لأنه ببساطة لا وجود لهم.

11

بالفعل تم زفافهما بحساب المصلحة لا بحساب الحب. الحقيقة أن كلا من عطيات وبرسوم كانا مستفيدين من الآخر، لكن يبدو أن برسوم قد استفاد أكثر من وجود عطيات في حياته. لم يستطع تدبير أي شيء سوى خاتم الزواج وتأجير فستان الزفاف فاضطرت عطيات إلى التضحية بحصيلة دفتر التوفير لتبتاع غرفة نوم جديدة وثلاجة عشرة قدم وتلفزيون 21 بوصة وغسالة نصف "أوتوماتيك". لم تنل الفرح الذي كانت تحلم به و لم ترتد الفستان الذي تخيلته مما آلمها كثيرا. أما هو فقد استعار بدلة صديقه نسيم وبدا فيها كالبهلوان أو "البلياتشو". تكفل متولي بالزفة التي انطلقت بالدفوف والأغاني السكندرية المشهورة:

عريسنا بحري بحري

ساكن في بحري بحري

أمه يهودية، أبوه أرمني
وصلي صلي... صلي
على النبي صلي... صلي

حين اختلى برسوم بزوجته يوم الدخلة لم يصدق نفسه. عانى كثيرا من الوحدة والاضطهاد. حين كان طفلا رفض أترابه اللعب معه وأوسعوه ضربا بمناسبة وغير مناسبة. في يوم من الأيام قذفه واحد منهم بحجر فشج جبهته. ولأن والده لم يهتم بخياطة الجرح في مستشفى فقد كبسته أمه بالبن فترك ندبة وعلامة مزمنة تشبه "زبيبة الصلاة" عند المسلمين! أنقذته هذه "الزبيبة" من مشاكل كثيرة في العديد من المواقف لأنها أدخلته –مع لحية مهملة– في طائفة "سيماهم في وجوههم".[166]

مضت على برسوم سنوات طويلة يشتهي النساء ولا ينال منهن شيئا. لم تهتم به امرأة قط. فقد الأمل في العثور على امرأة ترضى به زوجا لها. كم من مواسم للزواج أتت عليه وخرج منها مكسور الخاطر خفيض الرأس لأن الإناث تفضل الذكر القوي المتأنق؟!

لماذا يحصل شخص على كل ما يريد من مال وطعام ونساء ولا يجد آخر ما يتقوت به ويعيش محروما مشتاقا إلى امرأة يبث لها همه فتسمعه وتواسيه وتمشط شعره بأناملها وتخبره أنه مازال في الحياة أمل؟! من الصعب أن تشعر أن وجودك وفقدك وحضورك وغيابك وحياتك ومرضك وجوعك وشبعك وابتسامك وحزنك وألمك وفرحك وجرحك ونصرك لا يفرق

كثيرا عند الآخرين! ما أقسى أن تعيش لا يهتم بك أحد ثم تموت فلا يبكي عليك أحد!

قبل زواجه علق برسوم في ورشته صورًا للأميرة ديانا ونيكول كيدمان ومارلين مونرو واكتفى بالنظر إليهم وتخيلهم في حياته. إلى متى سيظل يتقلب في الفراش وحده؟! حين سأله متولي عن صاحبة الصورة الأولى رد عليه قائلا: "مش عارف بس حلوه مش كده؟!" فعلا جميلة جدا، لكنها ليست له. فعلا جميلة جدا، لكن هناك من امتلكها ثم زهد فيها!

حين لمس برسوم جسم عطيات نزلت دموعه على خديه. فهمت عطيات سبب بكاءه فأخذته في حضنها الدافئ. كم من الرجال اشتهوا لحم النساء و لم يتناولوه أو يشموه واكتفوا بالنظر والبحلقة! كم من الرجال أنت خصيتهم من الشكوى وانتفخت أوداجهم فلم يجدوا غير الوسائد يثون لها إحباطهم وشكواهم. عجيبة حقا هذه الحياة! هل قطعت عطيات كل هذه المسافة من الصعيد إلى الإسكندرية لتكون زوجة لهذا الرجل؟! وهل موت فادي وحسناء هو ما مهد لهذه الزيجة لكي تتم؟!

بعد الزواج مباشرة حاولت عطيات تغيير بعض عادات برسوم السيئة. ابتاعت سبورة وبدأت في تعليمه مبادئ القراءة والكتابة، لكنه لم يحقق نجاحا كبيرا. وضعه جهله في مواقف محرجة كثيرة. كان آخرها مع القسيس في حفل الزفاف، لكن الأخير –حين استشعر خجل برسوم– قال له أن أحد بطاركة الكرازة كان لا يقرأ ولا يكتب.(167)

لم يبذل برسوم مجهودا في التدليل عن حبه لعطيات واعتزازه بها.

يقولون أن الطريق لقلب الأنثى يمر بأذنيها، لكن برسوم فشل في التعبير حتى عن حاجاته الشخصية والعاطفية. حاولت عطيات أن تغير برسوم وتحبه، لكنه فشل في إشباعها وإرضائها لا بالكلمات ولا بغيرها فقد تبين أنه يمتلك عضوا رخوا. عرض نفسه على طبيب للعقم والذكورة فأخبره أن لديه مشكلة في اندفاع الدم إلى الأطراف.

– طيب يا دكتور إيه علاقة الدم بالانتصاب؟!

– إزاي بقى؟ إنت شوفت خرطوم إطفاء الحريق؟

– أيوه... أكيد... هو الحرايق بتبطل في بحري!

– لاحظت اندفاع المياه بتعمل إيه في الخرطوم؟

– أيوه.

– ده بالضبط اللي بيحصل لما الدم بيندفع للقضيب... بس إنت كمان عندك شوية مشاكل تانية.

– زي إيه يا دكتور.

– عندك فتحة التبول مش في مكانها الصحيح.

– فعلا يا دكتور أنا عندي البول بينزل تحت رجلي.

– وكمان وده الأهم عندك خصية معلقة، وأنصحك بجراحة لتنزيل الخصية مكانها الطبيعي لأنها ممكن تقلب بحاجة وحشة... وموقتا الحقن دي ها تساعدك في أداء العملية الجنسية.

كانت الحقن تساعد فعلا على الانتصاب، لكن مفعولها لا يستمر

طويلا. كان هذا الأمر مقرفا ومقززا لأن هم برسوم الأكبر انصرف إلى سرعة معاشرة زوجته قبل أن ينتهي مفعول الحقنة مما زاد الفجوة بينهما. حتى الكلاب تعاشر بعضها لفترة أطول من تلك! ما أصعب أن يقترن الجفاف العاطفي بالحرمان الجنسي.

في البداية صبرت عطيات على زوجها وأقنعت نفسها أن الأمر عارض سرعان ما يزول. تصنعت وصولها للنشوة وتظاهرت باكتمال شهوتها، لكن برسوم بقي متهيبا ومنكمشا كما هو. تذكرت عطيات ما سمعته يوما من بعض نسوة الصعيد حين كانت تعمل معهن في تقطيع قصب السكر. بدأ الحديث بالفرق بين "الزعزوعة" و"الجدر"، ثم عرج على حكايات فلكلورية عن المرأة التي كسرت قضيب زوجها بحركة مفاجأة خاطفة حين امتطته في وضع الفارسة، وعن المحاولات الطبية لتكبير القضيب، وعن الرجل الذي مات وهو يضاجع عاهرة وظل عضوه منتصبا بعد مماته، وعن فضيحة مماثلة لرجل انقبضت عضلات مهبل امرأة حول قضيبه فلم يستطع الخروج منها إلا بمساعدة الطبيب!!!

حين بدأت عطيات في التململ والتبرم ساءت نفسية زوجها وأُصيب بعقدة تسربت إلى أحلامه فكان دائما يرى أن عضوه قد قُطع ووضع في فمه! خرج برسوم يوما للصيد في الميناء مع متولي. أحس بالرغبة في التبول فلجأ إلى أسفل الجسر. كان الجو باردا ووجد صعوبة في أن يجد قضيبه. أصيب برعشة بعد أن قضى حاجته. على الجسر راح متولي يفتح صنارته ويخرج أجزائها للخارج حتى طالت المياه. لاحظ متولي أن صديقه ليس على ما يرام. حكى برسوم لمتولي عن مشاكله مع عطيات. اقترح عليه

متولي أن يُكثر من أكل الأسماك. كان جميلا من متولي أن يعطي لصديقه حصيلة الصيد كله قائلا له:

– شد حيلك. عايزينك ترفع راسنا وتطول رقبتنا تبقى طول رقبة الزرافة.

كانت عطيات تنظف سقف البيت بالزعافة حين دفع لها برسوم السمك لتطهوه على العشاء. في الصباح جلس برسوم في الورشة يبكي حاله ويدفع في غضب مسامير القلاووظ في خشب الزان الذي تُصنع منه كراسي البحر لأنه يتحمل المياه المالحة والعوامل الجوية. توقف للحظة ثم التقط قطعة خشب "أبيض" ودق فيها مسمار حدادي فانفلقت الخشبة. تمنى برسوم أن يفلق عطيات مثل هذه الخشبة. تمنى لو امتلك "بنطة" مثقاب خرسانة. كان غارقا في أمنياته حين ألقى عليه متولي تحية الصباح مردفا:

– إيه سبع ولا ضبع؟

لم يرد برسوم. مر الشيخ عبد النبي عليهما في طريقه إلى المسجد ليؤذن للظهر. اقترح متولي على برسوم أن يجعل الشيخ عبد النبي يرقيه. حين انتهى الشيخ من صلاته هم برسوم لملاقاته بعيدا عن أعين الناس:

– حرما يا شيخ.

– جمعا يا بني.

– يا فضيلة الشيخ...

– أيوه يا برسوم يا بني.

– أنا... أنا... أنا كنت عايزك ترقيني.

– طيب و ماله يا بني من عينيا. عدي عليا في البيت بعد العشا.

في المساء ذهب برسوم إلى منزل الشيخ عبد النبي الذي قابله بالبشر والترحاب.

– مالك يا بني.

– مخنوق شويه يا شيخ عبد النبي و علاقتي بمراتي شوية كده... أنا كنت فاكر إنك مش ها توافق.

– ليه يا بني العلاج و البركة من حق أي إنسان.

– فعلا يا شيخ عبد النبي... أنا سمعت إن فيه مسلمين بيروحوا يتعالجوا على إيد أبونا مكاري يونان[168]...

– عارف في واحدة يهودية رقت السيدة عائشة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام.[169] وأغلب الأطباء اللي استعملهم الخلفاء كانوا مسيحيين زي يوحنا بن ماسويه وجرجس بن بختيوشع وغيرهم.

لم يفهم برسوم كثيرا مما قاله الشيخ عبد النبي تلك الليلة. كان مما قال الشيخ أنه ينتمي لعائلة أناضولية قدمت مصر في زمن الإخشيد مع عائلات وجماعات أخرى دخلوها "آمنين" فنعموا بالدار والجار وحازوا الخير والبركة. العجيب أن عددًا كبيرًا من هذه العائلة انخرطوا في سلك الجندية فحازوا شرف "خير أجناد الأرض"، كما قال الصادق الأمين ثم أسلموا واتجهوا شمالا بينما تمسك الآخرون بمسيحيتهم وسكنوا الجنوب! عمل الجد الكبير للشيخ عبد النبي مع الخواجه الفرنسي "كوست" في حفر ترعة المحمودية[170] التي أحضرت المياه العذبة إلى الإسكندرية، واستقرت

أسرته في كرموز وكوم الشقافة وكوم الناضورة.

قال أنه تجري في عروق المصريين دماء متباينة: فرعونية وإغريقية ورومانية وفارسية وشركسية وأرمينية وكردية وأمازيغية وتركية ومالطية وفرنسية وحبشية وشامية وعربية... لكن مصر مصرتهم وعجنتهم بشعيرها وخمائرها وملح أرضها وماء نيلها وخبزتهم بشمسها ودفئها؛ فسواء كنت طمان أو طولان أو أرناؤوطي أو باز أو عشري أو صيرفي أو سبروتي أو جعارة أو هوارة أو شبوكشي أو ششتاوي أو شندويلي أو زناتي أو... أو... أو... أنت مصري. لا تقل لي "مسلم" أو "مسيحي". ملعون من يجرح ويشوه ويدمر باسم الدين. لم يرتض الله الدين لعباده ليحرقوا أوطانهم ويخربوا بلادهم. الدين بريء من هؤلاء. لم يخلق الله الدين لتُشعل باسمه الحروب وتُقتل باسمه الأنفس التي حرم الله إلا بالحق.

قال أن مصر مرجلا كبيرا، وأنه يتحتم على من يرغب في العيش فيها أن يحيا وفقا لمنطقها هي في المزج والانصهار. قال أنك لو استطعت أن تفصل دقيق القمح عن دقيق الذرة في عجين تم تخميره وخبزه في فرن بلدي فيمكنك أن تفصل بين المصريين لأنهم نسيج واحد وهم في رباط إلى يوم القيامة كما قال المصطفى الكريم. قال أن بوتقة مصر تصهر الأجسام والألوان والملامح والعادات والأفكار، لكنها لا تقترب من المعتقدات فالدين يبقى أمر بين العبد وربه حتى لو نصوا عليه في الدساتير أو نصبوا باسمه هيئات وجماعات للوصاية والحسبة أيا كان اسمها: الهيئة الشرعية، هيئة الأمر بالمعروف، المجلس البابوي، مكتب الإرشاد، المجلس الشيعي الأعلى، أهل الحل والعقد...

بدأ الشيخ عبد النبي في رقية برسوم فوضع يده على رأسه وقرأ عليه سرا القواقل أو فواتح الخمس سور التي تبدأ بـ "قل"،[171] ثم أخذ يتمتم سرا ببعض الكلمات الطيبة: "يا من انشق لك القمر وجمع الله لك الأرض كلها فشاهدت مغربها ومشرقها، يا من حن الجذع إليك ونبع الماء من بين أصابعك، يا من سبح الحصى بكفك وسلم عليك الحجر والشجر، يا من أخبرتك الشاه أنها مسمومة واشتكى لك البعير الجهد، يا من شهد لك الذئب بالنبوة وأظلتك السحابة وأطعمت ألف رجل يوم الخندق من صاع شعير وتمر يسير... نسألك الشفاء لهذا الشاب من المرض، كما نسأل له الهداية واليقين."

حين انتهى برسوم من تناول كوب الحلبة شكر الشيخ عبد النبي وانطلق إلى القهوة لمقابلة صديقه نسيم ولعب "الدومينو" معه. كان تلفزيون القهوة المسطح الكبير يبث أغاني هابطة من نوعية "الصراحة راحة يا سيدي..."، وتخللت هذه الأغاني الماجنة إعلانات مستفزة تسوق للحبوب والأعشاب التي تزيد القوة الجنسية وتساعد على أداء الواجب المنزلي مع موسيقى تصورية لأغنية "خلي السلاح صاحي" ومشاهد لمواسير المدافع وتأكيدات بأن "حامد ها يرجع جامد". كان نظر برسوم مثبتا على التلفزيون فبادره نسيم:

– إيه يا حامد انت عندك مشكلة ولا إيه؟! النوم في العسل[172] برضه.

– لا أنا زي الفل.

- طيب سمعت النكتة دي: "بيقولك واحد صعيدي يسأل عن الفياجرا، قالوا له دي حبوب تخليك تمارس الجنس خمس مرات في اليوم؛ رد عليهم: مهدئ يعني!"

انفجر نسيم ضاحكا، أما برسوم فقد أطبق عليه صمت عجيب. ما أقذر الرجال حين يتحدثون عن موضوعهم المفضل "الجنس"! ما أقذر نكت الرجال وألفاظهم وهم يتحدثون عن المرأة وجسمها وجماعها! خرج برسوم عن صمته قائلا:

- الحقيقة أن مش زي الفل ولا حاجة يا نسيم.

- مربوط؟!

- حاجة زي كده.

- طيب ليه ما طلبتش من قدس أبونا يعالجك ببركة الرب يسوع اللي أبرأ الأبرص والأكمه.

- خفت من الفضيحة... ده حتى متولي عرض عليا أروح لشيخ يعمل رقية أو حجاب مش عارف.

- معقولة! ورحت؟!

- لأ... قولي يا نسيم هو إنت ليه ما تجوزتش لحد دلوقتي مع إن يعني إمكانياتك كويسة؟!

- مش عارف. يمكن خايف من الارتباط والالتزام.

- رغم إن الكنيسة الإنجيلية مرنة في موضوع الطلاق؟!

- حبيبي... الموضوع ما لوش علاقة بنوع الكنيسة ولا بالناس اللي بيتلونوا ويغيروا كنيستهم علشان يقدروا يطلقوا... الالتزام ده شيء ذاتي. فيه ملك حكم إنجلترا غير كنيسة الدولة كلها علشان يتجوز أرملة أخوه[173]... عارف كان فيه زمان واحد كاثوليكي اسمه المعلم غالي... يفتشوا بيته بأوامر من محمد علي باشا لقوا عنده ستين جارية![174]

- معقولة؟!

- أيوه... في ناس فاكره إن الأقباط ما بتهلسي، مع إن أنا عرفت من واحد زميلي إن كلمة "يهلس" دي أصلها قبطي![175]

في النهاية أقنع نسيم برسوم أن المشكلة قد تكون في نوع الخشب لا في المسمار، وفي البراية لا القلم الرصاص. راقت الفكرة للأخير. من أسوء عيوب هذا الشاب المسكين برسوم أنه جاهز دائما لاتهام الآخرين حتى يخرج من مشكلته. عرف من نسيم أن المرأة المختونة قد يكون لديها مشكلة نفسية أو صدمة من الجنس. لم يفهم برسوم كثيرا عن تشذيب البظر وتجميله فشرح له نسيم الأمر مضيفا أنه ليس له علاقة بالدين المسيحي، بل بالعادات والتقاليد في صعيد مصر.

عندما عاد برسوم إلى البيت هذه الليلة وجد عطيات نائمة فرفع عنها ثوب النوم وملابسها الداخلية في تؤدة ليعاين عضوها التناسلي. أحست عطيات بيد تمسك مهبلها وشفريه فقامت من النوم فزعة. صاح برسوم في وجهها: "أيوه مختونة... مختونة. المشكلة في البراية... في الخشب... المشكلة عندك إنت... سامعه؟ عندك إنت!" دفعته عطيات في حنق

وغضب نحو أرضية الغرفة، وهناك تكوم برسوم باكيا حتى أرخى الإرهاق جفنيه.

توترت العلاقة بين الزوجين بشكل كبير بعد هذه الواقعة. لم يكن برسوم محترما ولا راشدا حين أخبر عطيات بالحديث الذي دار بينه وبين متولي ونسيم. أراد أن يعلق واقعة المهبل على شماعة نسيم هذه المرة - ما أشد جرح المرأة حين تعلم أن زوجها يُفشي أسرار علاقته بزوجته لأصدقائه!

مع مرور الأيام أصبح برسوم من أكبر المستهلكين للفياجرا والمتشطات الجنسية والصواريخ الصيني وشوربة "السي فود" والتي يطلق عليها العامة "السيفون"! لم تحقق هذه الأشياء النتيجة المنشودة. حتى أدوية الطبيب فشلت في ضخ الدم إلى أطرافه. "هذه الأدوية تعالج المريض، لكنها لا تُحيي الميت" على حد قوله! في النهاية ابتاع برسوم عن طريق صديقه نسيم قضيب صناعي من النوعية التي تعمل بالبطارية وتصدر اهتزازات Vibrator.

كُتب على عطيات أن يكون الحمل والجنس في حياتها محاكيات لا تتم بصورة طبيعية! مع مرور الأيام اكتشفت أنها تسرعت بقبول برسوم في حياتها. بات عليها أن تتقبل الوضع فليس من اليسير تغييره. صحيح أنه يمكن الحصول على الطلاق بسبب العنة والخبل والضرب المبرح، لكنها سكة طويلة، وفي المسيحية الزواج رباط مقدس ولا يقع الطلاق بصفة أساسية إلا لعلة الزنا.[176]

12

قرر برسوم أن يجري جراحة الخصية المعلقة. كان يتعين عليه أن يخبر عطيات بهذا الأمر قبل الزواج، لكنه لم يفعل. ربما لم ينتبه لأهمية هذا الأمر وأنه قد يؤثر على الإنجاب، ومن يدري ربما كان له علاقة بانكماش عضوه إلى الداخل كسلحفاة في بيات شتوي متصل؟! قرر برسوم أن يجري عملية لإنزال الخصية التي تتحدى قوانين الجاذبية. لم يكن أمامه سوى مستشفيات الحكومة، لكن صديقه نسيم قال له:

- معقولة يا برسوم تسلم نفسك ولا مؤاخذة "عدتك" لطبيب مسلم؟!

- مسلم ولا مسيحي يا نسيم... كلهم دكاترة وحالفين اليمين. إنت هتعمل زي المسلمين اللي بيرفضوا يشتروا شماسي من عندي لما يعرفوا اسمي ويروحوا الورشة تانية علشان ينفعوا المسلم.

- أنا رأيي تروح مستوصف الأنبا تكلا... خاف على نفسك يا راجل... عارف أنا حتى بقص شعري عند حلاق مسيحي... أصل بتجيلي أفكار كده وأحس إن ممكن الحلاق يقطع رقبتي.
- ده من كتر الكلام والحكايات اللي سمعناها من أهالينا عن المسلمين علشان يخوفونا منهم.
- طيب ما هم كمان مش طايقنا. عيد الأضحى اللي فات رحنا نعيد على جارنا المسلم. ابنه كان معاه مسدس لعبة. عارف الولد قالي إيه؟!
- مم؟
- قالي "نفسي يا عم نسيم المسدس ده يكون حقيقي وأموت كل المسيحيين"!!! تفتكر طفل عنده أربع سنين جاب منين الكلام ده؟!

لم يعلق برسوم. ليس لديه المال اللازم لإجراء الجراحة في مستوصف أو مستشفى خاص. رقد برسوم في عنبر الجراحة بمستشفى جامعة الإسكندرية أو "الميري" وبجواره رجل أُجريت له عملية لإزالة حدبة أو "قتب" في أعلى الظهر. كان منظر الرجل صعبا وهو يسير بهذه الكرة في ظهره ويتنفس بصعوبة وينظر دوما إلى الأرض مُكرها. ورغم ذلك لم يكن عم "أُنسي" متبرما أو متأففا، ولولا أن الأطباء نصحوه بإجراء العملية ما فعل. كان يبيع الشاي على بوابة الميناء ويعود كل يوم لبيته ومعه كيلو سمك "بسارية" ليطعم قطط الشوارع.

في العنبر وقبل إجراء الجراحة كان عم أُنسي يساعد كل المقعدين في تناول طعامهم وشرابهم وعلى وجهه ابتسامة جميلة، بل وكان أحيانا – في غياب العامل– يفرغ البول من "القساطر" في دلو ثم يلقيه في دورة

المياه. لم تُتح الفرصة لساكني العنبر ليردوا الجميل لهذا الرجل لأنه مات أثناء إجراء الجراحة. بعد موته تبين أنه كان مسيحيا... نعم مسيحيا كما أراد المسيح يحب بلا حدود ويمنح بلا ثمن ويطمح في مملكة السماء.

زار برسوم كل أصدقاءه المسلمين وحملوا له البرتقال. وضع الشيخ عبد النبي في جيبه مائة جنيه. كانت عطيات تزوره كل يوم بصحبة متولي، وكانت تستمتع بالمشي مع متولي من شارع السكة الجديدة حتى محطة الرمل.

أحست باهتمامه بها أو ربما باشتهائه لها، لكنه أيضا كان ينظر إلى غالبية النسوة في الشوارع. أرادت أن تقول له أن هذا ليس سلوكا طيبا، لكنها لم تستطع. مرا يوما بشارع سعد زغلول الذي يعج بأعرق محلات الإسكندرية. كم من اليونانيين الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك والمسلمين والأقباط عملوا معا وعاشوا معا وساروا معا في هذا الشارع؟! كان المولد النبوي على الأبواب فاشترى لها متولي حلوى العلف (سمسمية وسودانية وحمصية) من محل "كان كان" والذي يقع في أول شارع النبي دانيال.[177]

نظرت عطيات إلى عروسة المولد. ما أشد الشبه بينها وبين صور القديسات وتلك الهالة التي تحيط بوجوههن! كم من العادات جمعت بين الأقباط المسلمين والأقباط المسيحيين لأن كلاهما ورث مجدا تليدا من فراعنة مصر العظام. نتحدث هنا عن عادات وتقاليد كثيرة مثل بناء القبور و"السبوع" و"ليلة الحنة" والندابات أو "التنجيز" والاستنجاء والأربعين وأشياء أخرى لا يحصيها العد.

قبل خروج برسوم من المستشفى بيوم أمسك متولي بيد عطيات ليعبر بها الشارع. أحست عطيات بشعور غريب وكهرباء في جسمها كله. تدرك أن هذه هي آخر مرة تسير مع متولي في هذا الشارع الذي أحبته.

كانت رائحة البن المحمص تنتشر في الهواء بالقرب من محل "سوفيانوبلو" حين تبادل السائران نظرة ليست ككل النظرات السابقة. نظرة اختزلت كل كلمات الغزل وآهات الجنس وتأوهات الجسد منذ بداية الخليقة.

اشترى لها متولي الآيس كريم ونظر إليها وهي تلتهم المخروط الممتلئ بالشكولاته واللبن بنهم. كان خلفها فاترينة تعرض ملابس داخلية نسائية من النوعية التي تسمى "ثونج" Thong. نظرت عطيات خلفها وفهمت ما يفكر فيه. شعرت بالخجل كونها تدرك أن متولي يعلم أبعاد مشكلتها مع برسوم.

ما أجمل أن تشعر امرأة أن رجلا يتخيلها ويراها في ملابس داخلية مثيرة! لابد أن هذا "الثونج" ليس مريحا لكنه مغري. لو كانت بمفردها لابتاعت هذا "الثونج" لا لبرسوم بل لنفسها. برسوم هذا لا يفهم هذه الأشياء ولا يعيرها اهتماما! حتى الطيور والحيوانات تتبادل الغزل والرقص ولا بأس ببعض "الدلع" والتمنع قبل المواقعة والمعاشرة، لكن برسوم لا يفهم هذه الأشياء ولا غيرها!

كان متولي مغايرا البرسوم في كل شيء: طويل ومفتول العضلات؛ يهتم بأناقته ومظهره؛ يضع العطور ويحسن الكلام؛ جرئ وواثق من نفسه. كان يتردد كثيرا على منزلهما بحكم صداقته لبرسوم، وكان الأخير يثق

فيه ثقة عمياء. كانت الصداقة بينهما مضرب المثل في المنطقة وتدليلا على العلاقة الطيبة بين عنصري الأمة. كان متولي معجبا بعطيات وكم من المرات افترسها بعينيه وبلل حجرها بكلامه وأذاب حيائها بلسانه وتحسس جسمها بيديه حين يغيب برسوم عن المشهد. العجيب أن عطيات لم تحرك ساكنا ولم تعرف وسيلة لصده ويبدو أنها كانت مستمتعة بهذا العبث وتلك المداعبات.

في يوم من الأيام جلس الثلاثة في بيت برسوم يتناولون الكشري الذي تتقن عطيات صنعه كأغلب المسيحيين في مصر. التهم متولي طبقه وطلب "كماله". علق برسوم قائلا:

– كماله إيه؟! هو إنت في مطعم؟!

– طيب والله فكرة إيه رأيك يا عطيات نفتح مطعم كشري أو حتى عربية في الشارع؟

– أكيد ما حدش هايشتري منها.

– ليه؟!

– لأن المسلمين ما بيحبوش أكل الأقباط.

– طيب ما أنا باكل معاكم أهو... وبعدين يا ستي مش لازم تحطوا الصور بتاعتكم دي اللي بتخوف الناس... العمم السوده والدقون الكبيرة.

– طيب ما إنتم عندكم دقون وعمم!

– آه صحيح.

– طيب يا أخي ما تتجوز أحسن وخلي مراتك تعملك الأكل اللي نفسك فيه.

– أتجوز إيه يا حاج برسوم! إنت مش عارف البير وغطاه، وبعدين هو أنا ناقص خانقة: رحت فين وجيت منين؟

أعدت عطيات الشاي بالنعناع وجلسوا جميعا يتناولونه مع الفول السوداني ويشاهدون فيلم "لوعة الحب"[178]. يدور الفيلم حول آمال التي تتزوج من ممدوح سائق القطار المقزز والذي يتعامل معها بقسوة وجفاف. تحس آمال بتعطش قوى للحنان والعطف. يسافر ممدوح إلى مدينة أخرى ويطلب من مساعده حسن أن يرعى زوجته أثناء غيابه. وجدت آمال في حسن تعويضا عن حياتها القاسية مع ممدوح. كانت يدا متولي تتحسس فخذي عطيات بين الحين والآخر أثناء مشاهدة الفيلم، و لم يلحظ برسوم شيئا من هذا، كما لم يلحظ التغير الذي طرأ على زوجته.

في يوم من الأيام اُضطر برسوم للسفر إلى سوهاج للعزاء في قريب له. ولأنه قد يمكث أكثر من ليلة فقد أحس بالرغبة في مضاجعة زوجته قبل سفره. ما إن فرغ منها حتى ارتدى ملابسه دون استحمام وودع صديقه متولي في الشارع فأوصاه على عطيات ثم ولى شطره نحو محطة القطار. صعد متولي في التو إلى عطيات لينفذ وصية صديقه ويطمئن على زوجته ويلبي رغباتها واحتياجاتها، لكن هذه المرة كانت مختلفة.

كانت عطيات قد انتهت من حمامها البارد حين دق جرس الباب. ما إن رأى متولي الروب الذي ترتديه عطيات على اللحم حتى ذهب عنه عقله فخلع ملابسه. نظرت عطيات إليه فرأيت شيئا مختلفا في الحجم

والصلابة واللمعان. لعنت برسوم وقضيبه الصناعي في سرها وتردد في عقلها المثل الذي يقول "قال بره وجوه فرشتلك وإنت مايل إيه يعدلك؟!" أزاح متولي عنها الروب وأكمل ما كان يفعله برسوم منذ أقل من ساعة. حاولت عطيات أن تثنيه عن ذلك، لكنها فشلت أمام لسانه الذي لم يستحوذ على أذنيها فقط هذه المرة بل على كل قطعة من جسدها.

طوقها من خصرها ووجه يدها نحو قضيبه المنتفخ كديك استعد للقتال. أجلسها على حجره ومص أصابع كفها التي تشبه حلوى "العسلية". فرك فخذيها المكتنزين وردفيها الوارفين ولقم نهديها الساخنين كمن يرشف ثمرة جوز الهند. تذوق شفتيها ولسانها ورضابه الشهي. غمغمت وهمهمت فدفعها نحو الأريكة. تشمم رائحة إبطيها وهو يقول لها أنه يحب المرأة المشعرة. صفع ردفيها حتى احمرا وضاجعها وزلزلها حتى أغمي عليها. دلك ظهرها وكتفيها ببعض من زيت النعناع. حين فرغ منها أشعل سيجارة ثم قام عنها وارتدى ملابسه وغادر البيت تاركا علبة سجائره الأمريكية وراءه.

نال متولي مبتغاه ولحق منيه بمني صاحبه فأبى إلا أن يشاركه كل شيء: طعامه وشرابه وزوجته! أما عطيات فلم تستطع الوقوف على قدميها فانهارت على الفراش. أفاقت من سكرات النشوى والمتعة الطويلة على وجع الندم والحسرة. مع مرور الأيام جافاها النوم وأسلمت نفسها للحزن. لم تعد تطيق النظر إلى برسوم أو متولي أو رؤية نفسها في المرآة.

تمنت لو أنها لم تخرج من الصعيد مطلقا فما حدث لها هنا في الإسكندرية لم يكن على البال ولا على الخاطر. هل وصل بها الأمر أن

تخطئ مع مسلم؟! هذه ثاني مرة تستقبل ماء المسلمين: مرة من أجل الذرية ومرة من أجل الشهوة. مسلم أو مسيحي... الخطيئة هي الخطيئة... ليس لها اسم آخر.

مع مرور الأيام زاد شرود عطيات وسهادها وقل طعامها وأصبحت عصبية. حاول برسوم بشتى الصور أن يعرف السبب وأن يلاطفها، لكن الوقت كان قد فات. لقد خانت زوجها في خيالها قبل أن تخونه على فراشه، لكنه كان غبيا و لم يفهم. بث برسوم همومه لصديقه متولي الذي تهرب من الرد عليه. لم يتخيل برسوم بطبيعة الحال أن لمتولي علاقة بالأمر لأنه يشك في نفسه ولا يشك فيه!

مما زاد الطين بلة أن شيئا بدأ يتحرك في أحشاء عطيات. تعرف هذا الشعور وجربته من قبل. جلست عطيات في الصيدلية تنظر إلى ألبان الأطفال والعضاضات والرضاعات وخلافه. استأذنت من عملها وذهبت إلى مستوصف يقع في شارع السبع بنات. رغم أن تسمية الشارع تعود إلى سبع راهبات كن يقمن بإضاءته في المساء، فقد اُشتهر في الماضي بوجود الحانات والخمارات وبنات الهوى. لا تدري لماذا، لكن عطيات شعرت أنها إحدى هؤلاء العاهرات اللاتي كن يجبن الشارع؟

لم يصعقها الخبر الذي أنبأتها به طبيبة المستوصف. نعم هي حامل... تعرف ذلك، لكنها تريد أن تعرف ما هو أكثر من ذلك... تريد أن تعرف إذا كان برسوم أو متولي والد الجنين؟ زادت حالتها سوءا وذيل وجهها الصبوح. فكرت في الإجهاض، لكن الكنيسة لا تجيز حتى إجهاض المغتصبة. ما ذنب هذا الطفل؟! ثم إذا كان برسوم والد الجنين فما ذنبه أن

يُحرم من عاطفة الأبوة. لقد ساعدت رامز المسلم من قبل لكي يصبح أبا فما بالها بزوجها المسيحي الذي جمعهما الرب والتصق بها بالرغم من كل تحفظاتها عليه.(179)

في الشهر الثالث عرفت عطيات أنها حامل في توأم وتعقدت المسألة. مرة أخرى عادت تسأل نفسها عن والد التوأم؟! يميل برسوم للسمار مثلها... ماذا لو أتي الطفلان في بياض متولي!!! تخاف من الفضيحة. يسمون هذه الظاهرة في الولايات المتحدة Milkman's eyes عندما يأتي الطفل مشابها لشخص آخر، ربما يكون بائع الألبان أو خلافه، لكنهم يقولون في مصر أن العرق يمد لسابع جد. لن يلتفت برسوم لهذا الأمر على أي حال فهو أبسط من أن يشغل نفسه بهذه الأمور.

وقفت عطيات بعد أيام في المطبخ تصنع "الفيشار" لبسمة بنت جارتها محاسن وتغلي اللبن وتستمع للمذياع. كان ضيوف أحد البرامج يتحدثون عن الخيانة الزوجية. عرج أحدهم على قصة الزوج المخدوع التي قُصت على مسامع الملك خوفو. تقول الحكاية أن زوجة أحد الكهنة يُدعى "أوبا أوني" قد خانته مع أحد القرويين. قُبض على العاشقين فأُلقي الفلاح إلى التماسيح وأما الزوجة فقد أُحرقت.

أشار المتحدث الثاني إلى ما رواه الجبرتي عن امرأة مسلمة تُسمى "هوى" كانت متزوجة من رجل اسمه "إسماعيل حسن الكاشف" فتركت بيته وتزوجت من رجل اسمه "نيقولا" واحتمت بالفرنسيين في قلعة الجبل. بعد جلاء الحملة الفرنسية قبضوا عليها وسلموها لزوجها. يقول صاحب

"عجائب الآثار في التراجم والأخبار" أن زوجها أمنها وطمأنها وأقامت معه أياما فاستأذن الوزير في قتلها فأذن له فخنقها.

أشار المتحدث الثالث إلى أنه حتى الحيوانات والطيور تدرك عظم خطيئة الزنا. روى الإمام البخاري[180] عن عمرو بن ميمون قال: "كنت في اليمن في الجاهلية أرع غنما لأهلي، فاقترب قرد من قردة فتوسد يدها، فجاء قرد أصغر منه فغمزها، فسلت يدها من تحت رأس القرد الأول سلا رفيقا وتبعته، فوقع عليها وأنا أنظر، ثم رجعت فجعلت تدخل يدها تحت خد الأول برفق، فاستيقظ فزعا، فشمها فصاح، فاجتمعت القرود، فجعل يصيح ويومئ إليها بيده، فذهب القرود يمنة ويسرة، فجاءوا بذلك القرد أعرفه، فحفروا لهما حفرة فرجموهما."

ويُقال أيضا أن عالم فرنسي استبدل بيض طيور اللقلق ببيض دجاجة في غفلة من الزوج والزوجة اللذين تبادلا تدفئة البيض واحتضانه حتى الفقس. كانت مفاجأة حين وجد الذكر أن البيض أخرج أفراخ الدجاج بدلا من أن يفرخ لقالقا. طار الزوج بعيدا وعاد بعدها ومعه بعض اللقالق فقتلوا الأنثى والأفراخ بمناقيرهم.

وضعت عطيات يدها على بطنها بينما راحت حبات الذرة تنفجر داخل الإناء. لم تنتبه إلى أن اللبن قد ارتفع فأطفأ عين الموقد. سارعت عطيات فأغلقت الغاز، ثم نظرت إلى اللبن وحولت عينيها نحو بسمة. تذكرت أمها حين كانت تناولها كوب اللبن الجاموسي قبل النوم. تذكرت إيزيس وميريت وتذكرت صدرها الذي جف فيه اللبن. حين غادرت

بسمة المنزل ومعها "الفيشار" انهارت عطيات على أرضية "الصالة" مشكلة بجسمها صليبا تماما كهند رستم في فيلم "الراهبة" ثم راحت تبكي نفسها وخطيئتها.

ما لم تكن تعرفه عطيات في مساء ذاك اليوم الذي قررت فيه إخبار برسوم بأمر حملها أن زوجها والد جنين واحد فقط! بينما كان برسوم يخلع ملابس العمل كانت عطيات تعد له العشاء. وضعت بيضتين في صفيحة السمن الخالية المملوءة بالماء ثم وضعتها على النار. تقدم برسوم نحو عطيات واحتضنها من الخلف بشهوانية قائلا:

– عطعط حبيبتي.

– إيه عطعط دي؟!

– بدلعك.

– حد يدلع واحدة يقولها عطعط.

– طيب أقول إيه؟!

– ولا حاجة.

وقف برسوم مشوشا. أخذ ينظر إلى البيض وهو يترجرج في الصفيحة ثم انفجر في الضحك:

– إيه بيضحك؟!

– أصل سمعت نكتة حلوة النهاردة على البيض، ولما شوفته افتكرتها.

- خير؟!

- بيقولك فلاحة كانت بتنتقم من جوزها وتخونه لأنه بتاع نسوان. في يوم من الأيام رجع الزوج من الغيط وفتح الدولاب يدور على قرشين. لقى بيضة وألف جنيه. فرح قوي بالفلوس، لكن سأل زوجته عن البيضة. قالتله: "أنا كنت كل ما أخونك أحط بيضة." سأل الزوج "طيب والألف جنيه؟!". ردت الزوجة: "كل ما أجمع كرتونة بيض، كنت أبيعها!"

وجمت عطيات، لكنها ابتسمت ابتسامة طفيفة. انفجر برسوم في الضحك، لكنه توقف حين شم راحة نتنة قادمة من صفيحة البيض فقال لزوجته:

- عطيات... فيه ريحه وحشة... يظهر بيضة من اللي بتسويهم فاسدة.

أصاب برسوم كبد الحقيقة فمتولي هو والد الجنين الآخر!!! نعم... لم تكن عطيات حامل في توأم من بويضة منقسمة أو ما يُعرف بالتوأم المتطابق كإيزيس وميريت، بل في توأم من بويضتين مختلفتين أو ما يُسمى بالتوأم غير المتطابق. نعم... كان رحم عطيات يضم العفة والإثم ويجمع بين الشرف والخطيئة. قال العلم كلمته... في حالات معروفة تنتج المرأة بويضتين في دورة شهرية واحدة. تبقى البويضتان صالحتان للتخصيب لمدة قد تصل إلى يوم كامل، بينما يستطيع الحيوان المنوي أن يبقى على قيد الحياة في جسم المرأة ضعف هذه المدة. إذا ضاجع المرأة رجلان في فترة زمنية متقاربة فيمكن أن تحمل من كلاهما.[181]

حين علم برسوم بأنه سيصبح أبا طار من الفرح وأحس برجولته. صحيح أن قضيبه مهلهلا؛ وصحيح أن خصيتيه لا تنتجان عددا كبيرا من الحيوانات المنوية؛ وصحيح أن نسبة كبيرة منها تعاني من الشلل والتشويه، لكن يبدو أن البقية الباقية مركزة بالقدر الكاف لأن عطيات حامل في توأم. لأول مرة يشعر أن حياته لها قيمة. تغيرت معاملته مع زوجته بشكل كبير، لكنه تأخر كثيرا فما جدوى ذلك الآن؟! "أغلق باب الإسطبل"، كما يقولون "بعد أن فرت المهرة."

13

شاهد متولي يوما عطيات وقد ظهرت عليها أعراض الحمل فشك في الأمر وأحس بالندم وبفداحة فعلته وعظم ذنبه وخيانته لصديق عمره. زاد كرب متولي في صلاة الجمعة التي لا يُصلي غيرها حين ذكر إمام مسجد سيدي تمراز قصة الشاب الذي عاص نفسه بالغائض حتى يهرب من امرأة راودته عن نفسه، وكذا قصة الشاب الذي ادعى أنه مصاب بالإيدز لينجو من نفس الموقف ففوجئ بالمرأة التي تهيأت له تقول: "طيب وإيه يعني ما أنا مصابة بالإيدز من أربع سنوات!"

نصح الشيخ الشباب بالزواج أو الصيام: "الزواج سنة الله في الكون فسفينة نوح عليه السلام حملت من كل صنف ونوع زوجين. لا توجد نعمة في الوجود تضاهي السكن لزوجة شريفة عفيفة. إن مشيئة الله عز وجل اقتضت أن لا يتزوج ابنا الخالة يحيي وعيسى عليهما السلام؛ ورغم

ذلك فقد عاني الأخير من الوحدة. روى ابن كثير أنه بينما كان عيسى عليه السلام سائحا في الأرض نزل مطر شديد وصاحبه برق ورعد وبرد فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه ويحتمي به فإذا هو بكهف في جبل فصعد إليه فوجد أسدا وأنثاه فرفع يده للسماء قائلا: إلهي... جعلت لكل مخلوق زوج يسكن إليه حتى الوحوش في البراري، ولم تجعل لي ماوى.. أجابه المولى عز وجل أن مأواك عندي... لأزوجنك مائة من الحور ولأطعمن في عرسك أربع مائة سنة كل يوم فيها كعمر الدنيا."

ختم الشيخ خطبته ببعض العبارات المتواترة: "لا تشته زوجة جارك."[182] "لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم..."[183] لا تخترق حرمة صديقك ولا تفضح ستره أو تنتهك خلوته. "من تتبع عورة الناس تتبع الله عورته."[184] "كل من نظر إلى امرأة ليشتهيها في عينه فقد زنى بها في قلبه."[185] عف نفسك وغض بصرك. اغبط ولا تحسد؛ إياك وخراب البيوت العامرة؛ إياك وتنفير النفوس الراضية. "ليس منا من خبب امرأة على زوجها"[186]، أي أفسد العلاقة بينهما.

حاول متولي الاعتراف لبرسوم بما حدث بينه وبين زوجته، لكنه لم يستطع ولم تخرج الكلمات من فمه. كان إيمانه ضعيفا وشيطانه قوي، يؤمن بتحصيل اللذة وبالغاية التي تبررها الوسيلة. أخفق في المضي في التوبة النقية النصوح فعاد لسيرته الأولى وكأني به يقول "ما أشهى الطعام الذي لا تدفع ثمنه والمال الذي لا تتعب فيه والمرأة التي لا تربطك بها صلة!!!" وكأني به يردد مع جبران:

الخيانة شيء جميل... نعم جميل... ما العجب؟
لو لم تكن الخيانة شيء جميل، فلم نخون؟
نخون ونقول أن الخيانة من أقبح ما يكون!

كان لمتولي قريب في شركة سيدي كرير للبترول غرب الإسكندرية، وعن طريقه بحث عن فرصة عمل خارج المحافظة ووجدها في قسم الصيانة بشركة بترول في مدينة رأس غارب. تمنى لو أن هناك شركات بترول في الغردقة. سمع كثيرا عن شواطئ هذه المدينة. يقولون أن جزءا منها مخصصا للعراة! تمنى متولي لو وجد عملا على أحد هذه الشواطئ، وتعجب كيف يمكن أن يُبقي مصطافا قضيبه مرتخيا وهو يتجول عاريا بين صدور النساء!

نقول نحن المصريون أن الله أعطى الدنيا للغربيين وأعطانا الآخرة، لكن متولي وآخرين على شاكلته يريدون نصيبهم من الدنيا والآخرة، أو ربما الدنيا الآن وليفكروا في الآخرة فيما بعد. أطلق متولي العنان لخياله فرأى نفسه كملك متوج على الشاطئ يجلس على مقعد مريح محتسيا عصير البرتقال بينما يمر أمامه صف طويل لا ينتهي من أجمل نساء الأرض عراة تماما كما ولدتهم أمهاتهم؛ وبإشارة من سبابته تحضر إليه من يشتهي ويريد!! تمنى لو نام على سرير وثير في حجرة مكيفة وحوله عشرة من النسوة يقمن بتدليك أصابع قدميه وكتفيه وباقي جسمه حتى الصباح.

أفاق من أحلام يقظته على صوت أحد العمال في أتوبيس الشركة يُخبر

آخر أنه ينوي في عطلة نهاية الأسبوع زيارة دير الأنبا أنطونيوس الذي يقع غرب رأس غارب ويُعد أقدم دير في العالم على الإطلاق. سمع عامل آخر يُخبر من يجلس بجواره عن سقوط أحد المهندسين من منصة حقل بلاعيم في البحر والتهام القروش له. انقبض قلب متولي، لكن سرعان ما طرد هذه الهلاوس من عقله.

في أول يوم له هناك تعرف متولي بمسجد الإمام "السجاد" على مجموعة من المهندسين المصريين الذين عملوا معا في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية والكويت ولهم ميول شيعية. اعتادت هذه المجموعة ممارسة رياضة المشي بين المغرب والعشاء حتى الفنار القديم(187) والعودة، وكانوا خلال هذه الرحلة يناقشون كثيرا من المسائل الشيعية ويتأففون من التضييق الأمني في مصر وعدم السماح لهم بممارسة شعائرهم بحرية. استمع متولي لكثير من أفكارهم وتظاهر أمامهم أنه تشيع ليساعدوه في السفر إلى الخليج.

الحقيقة أن متولي لا يهتم كثيرا إذا كان سنيا أو شيعيا أو حتى بهائيا أو درزيا. متولي هذا ينتمي لنوعية من الأشخاص موجودة بيننا تؤمن بأن كل شيء مباح في سبيل الوصول إلى القصد والغاية. في حادثة سابقة أخبر فتاة مسيحية تعرف عليها في حفل زفاف بإحدى الكنائس أن اسمه دانيال وأنه مسيحي مثلها حتى نال منها مأربه ثم اختفى.

كان متولي بارعا في الكذب والغش والإحتيال، ويمكنه بيع المياه في حارة السقايين، بل والثلج لشعوب الإسكيمو! عندما كان طالبا في دبلوم الصنايع زور شهادة فقر باستخدام الحبر والنسر الموجود على العشرة قروش

الفضية. عندما كان في الجيش احتال على عامل تشغيل جهاز الإشاعة بالمستشفى العسكري حين وضع "سلكة" على ساقه فظهر أن لديه شرخ وأخذ أجازة شهر.

استمع متولي من رفقائه لأشياء لا يفهم معناها: العصمة والعترة[188] والتقية[189] والرجعة[190] وولاية الفقيه ومصحف فاطمة وسورة الولاية وكربلاء والحسينيات والأئمة الأثنا عشرية والثورة الخومينية... لكن أهم ما شغل باله هو "السيغيه" أو "زواج المتعة" والجماع من الدبر الذي يعشقه. كم هو رائع أن تمكث مع امرأة الفترة التي تريدها بدءا من ساعة حتى تسعة وتسعين عاما ثم تتركها لغيرها... وهكذا! لا بد أن هذا الأمر يكسر الملل الجنسي ويحفز شهوة الرجل أو هكذا ظن متولي. ما أشبه زواج المتعة ببيع الهوى أو ما يسميه الغربيون One-night-stand.

بالفعل تمكن متولي من السفر إلى الإمارات. بالرغم من احتلال إيران لثلاث جزر إماراتية[191]، إلا أن الإيرانيات يملأن شوارع دبي. تعرف هناك على أرملة إيرانية تُدعى "فروغ" وفُتن بجمالها. لا عجب أن الإسكندر الأكبر تزوج من الفارسيات[192] وكذلك فعل الحسين بن علي[193] وعبد الله بن عمر ومحمد ابن أبي بكر والوليد بن عبد الملك والمأمون[194] لجمالهن وعذوبتهن ونعومتهن. سمع من أحد العاملين في شركة سياحية لتنظيم الحج والعمرة أن التحدي الكبير في صحن الكعبة هو أن تُبقي نظرك بعيدا عن الإيرانيات.

منذ ذلك اليوم وضع متولي الذهاب لإيران هدفا له. ساعده أحد

الشيعة العرب هناك على اجتياز الخليج "الفارسي" كما سماه في معرض حديثه. أخيرا وضع متولي قدمه على بلاد الملالي، الأرض الصفوية.

في إيران اكتشف متولي معنى جديدا للشتم. السب والقذف جزءا من الموروث الثقافي في هذه البلاد. الناس هناك يلعنون عددا كبيرا من الصحابة والسلاطين والحكام والشخصيات كل يوم. كان مما لفت نظره أنهم يلعنون صلاح الدين لأنه أنهى المذهب الشيعي في مصر، كما يلعنون المصريين أنفسهم لأنهم سمحوا بدفن الشاه الأخير في أراضيهم! في برنامج تلفزيوني بالعربية قال أحد مشايخهم عن مصر: "أرضها ذهب ونساؤها لعب ورجالها لمن غلب وأهلها تجمعهم الطبلة وتفرقهم العصا... وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم فيها، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها... ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تغسلوا رءوسكم بطينها ولا تأكلوا من فخارها فإنه يورث الذلة ويذهب الغيرة."(195)

لم يتأثر متولي كثيرا بما سمع عن مصر والمصريين. لم يحزن لوجود شارع يحمل اسم الإسلامبولي قاتل السادات. لقد طلق مصر بالثلاثة. لم يجد فيها شيئا يسره. أي عزة تُرجى من بلاد جائرة وأي خير يُنشد من قوم أضناء. صحيح لا كرامة لنبي في وطنه ولا لمصري في بلده. وجد متولي وطنا بين أثداء النساء وأفخاذهن وفي مهابلهن. مع مرور الوقت خبلت عقله الفارسيات وأصبح مهووسا بهن. ما أجمل الإيرانيات في طولهن ومشيتهن وتبخترهن ودلالهن وخدمتهن لرجالهن!

استقر متولي في البداية في طهران، لكنه لم يشعر بالراحة فيها لتزحامها وسوء مناخها وقلة أرزاقها. شاء حظه أن يسكن بالقرب من المكان الذي تشنق فيه الحكومة معارضيها. لا يستطيع أن يصدق أن الشيعة يستحلون دم السنة النواصب على حد قولهم، لكن جلة المشنوقين كانوا من عرب الأهواز السنيين.(196) كان الإعدام يتم باستخدام الروافع على نحو مرهق للأعصاب حيث يتجمع الناس بصفة منتظمة لمشاهدة الروح وهي تُنتزع من أشخاص عُلقوا في الهواء كالأسماك. بعد فترة من إقامته في العاصمة قرر متولي شد الرحال إلى مدينة "مشهد" والتي تقع في أقصى الشرق.

دخل متولي مشهد مساءا فوجد جبالها تشتعل نارا. عرف من أحد العراقيين أن اليوم هو عيد النيروز، وفيه تُضرم النار في رؤوس الجبال. عمل متولي في ورشة حدادة واعتاد الذهاب بعد العمل إلى مرقد الإمام الرضا حيث يعج الصحن بأصحاب الحاجات والمشلولين والعميان والمرضى وآخرين ممن يرجون الشفاء.(197) وقعت عيناه على يافطة باللغتين الفارسية والعربية وانشرح قلبه لقراءتها.

تقول الكلمات: "مؤسسة آستان قدس رضوي بمحافظة مشهد، مدينة الرضا تعلن عن نيتها لتأسيس مركز لقضاء الأوقات قرب مزار الإمام الرضا عليه السلام من أجل رفع الأجواء المعنوية في المجتمع، ومن أجل خلق أجواء روحانية وهادئة للإخوة الضيوف الذين يزورون حرم الإمام الثامن وهم بعيدين عن زوجاتهم. لهذا تطلب المؤسسة من جميع الأخوات المؤمنات حتى 35 عاما المساعدة والانخراط في هذا العمل. مدة العقد للراغبات في هذا العمل سنتان والتمتع بواقع 25 يوما في كل

شهر، وتتراوح الفترة الزمنية بين خمس ساعات حتى عشرة أيام مع الرجل الواحد. وفيما يلي قائمة الأسعار:

المتعة 5 ساعات = 50 ألف تومان(50 دولار)

يوم واحد = 75 ألف تومان (75 دولار)

يومان = 100 ألف تومان (100 دولار)

ثلاثة أيام = 150 ألف تومان (150 دولار)

من أربعة أيام حتى 10 أيام = 300 ألف تومان (300 دولار)

هذا وسوف يُقدم للأخوات البكر اللواتي يتمتعن لأول مرة مبلغا إضافيا يعادل 150 ألف تومان (150 دولار) من اجل إزالة غشاء البكارة."

اعتاد متولي –في انتظار صيد المساء– التلكع بجانب النافذة الفولاذية الضخمة التي تُشرف على الضريح بجوار رجل يبيع حرز الإمام الرضا. يتجمع هناك حشد من النساء اللواتي تردن زواج المتعة. صحيح أن كلهن ثيبات، لكن الثيب في الفارسيات – كما يُقال– تعود كالبكر.

لا يحتاج الجنس إلى لغة معينة فهو لغة في حد ذاته فبمجرد أن تحدق فيه امرأة حتى يذهب إليها وينهي معها الأمر بجملتين حفظهما عن ظهر قلب. من حسن الحظ أن الفارسية تُكتب بحروف عربية مما ساعده كثيرا على تعلم جزء كبير منها. الزواج لمدة ليلة والنقود أجرته اليومية عدا مبلغ بسيط يجنبه للعشاء، وقد يكون حظه طيبا فيقع في امرأة لديها بيت فتعد له طعاما شهيا.

كان متولي يشترط أن يرى وجه المرأة قبل الزواج منها. في يوم من الأيام

رفضت امرأة أن تريه وجهها. كان لها جسم جميل. قرر متولي أن يجرب حظه. يحب هذا الشعور بالمغامرة. اشترطت عليه "معصومة" وهو اسم المرأة أن يتزوجها لمدة يوم أو أسبوع أو شهر. اختار متولي الأسبوع. أراد أن يكون في هامش الأمان فإذا تبين أن المرأة جميلة استمتع بها سبعة أيام؛ وإذا تبين أنها قبيحة صبر واحتسب وتحامل على نفسه -خلال هذه المدة.

لا ينسى ما حدث له من شهرين حين تزوج امرأة يُقال لها "مهواش" لمدة عشرة أيام وتبين أنها مصابة بالصدفية ولها ست أصابع في قدمها الأيسر! كان منظر المرأة صعبا وقد انتشرت هذه البقع الحمراء في جسمها مما دفعه إلى الهروب منها في صبيحة اليوم التالي وهو يسبها في سره قائلا "يا بنت الرفضي". كان يجب عليها أن تخبره بأمر مرضها لأن ذلك يدخل في باب التدليس.

لا ينسى أيضا "صبا" التي تنتمي لمدينة "قم" مسقط رأس الإمام الخوميني. كانت تجري في شرايينها دماء عراقية فوالدها من النجف الأشرف، ولذا يمكنها تكوين جمل قصيرة باللغة العربية. تحدثت صبا باستفاضة عن الثورة الإسلامية وعن ضرورة بسط الهيمنة الفارسية على البحرين وشرق الجزيرة العربية. تحدثت أيضا عن قضية الرهائن الأمريكيين والتي أخرجت الرئيس كارتر من البيت الأبيض، وعن دعم سوريا وحزب الله وحركة حماس والمشروع النووي الايراني، كل هذا ومتولي يهز رأسه لأنه لا يعرف الكثير عن هذه الأشياء – ولولا أنه فُتن بهذا الشق العميق وسط صدرها الوافر الذي إن شاهدته لظننت أنه مؤخرتها – لتركها وذهب لحال سبيله.

أما "نزهت" والتي تنتمي لجماعة تُسمى "الزينبيات" فمجرد أن علمت أنه مصري راحت تسأله عن رأس سيدنا الحسين وضريحي السيدة زينب والسيدة نفيسة. أجاب متولي بردود مطاطية فهو لا يعرف الكثير عن عنهم و لم يزر مساجدهم من قبل. اشترطت عليه قبل أن يني بها أن يُدمي ظهره بسلسلة حديد فيما يُعرف عند الشيعة بـ "التطبير". ولكي تخلق جوا من المؤثرات الصوتية فقد أدارت شريط "لطميات"!

أرادت نزهت منه أن يُدلل على قوة إيمانه وندمه على خذلان الحسين. وضعته في مأزق كبير. لم ير الحسين و لم يعاصره، ولو شهد كربلاء أو كان قريبا منها لكان أول الفارين وفي مقدمة الناكثين. حاول متولي عبثا أن يقنعها أن الحسين في مكان أفضل الآن، وأن الموقف لا يحتمل هذا، وأنه لكل مقام مقال. ترجاها ألا تفسد لحظة اللقاء، فما كان منها إلا أن انبرت في البكاء والنواح والعويل مستغيثة بالزهراء، الصديقة، المباركة، الطاهرة، الزكية، الراضية، المرضية... بضعة خاتم النبيين وأم الأئمة الطاهرين ومنتحبة على ضلعها المكسور! [198] كانت ليلة سوداء بامتياز من لطم الخدود وشق الصدور ونكش الشعور. من حسن الحظ أنها كانت ليلة واحدة، وإلا لأصيب على الأرجح بصدمة عصبية فهو شخصية لا تحب النكد.

نظر متولي إلى معصومة في تطلع وشوق ثم اقترب منها قائلا:

– حال شما چطور است؟ (كيف حالك؟)

– من خوبم ممنون، شما اهل كجا هستيد؟ (بخير... من أين أنت؟)

– مصر.

- خوش آمديد. (أهلا بك.)
- اسم شما چيست؟ (ما اسمك؟)
- معصومة... شما چطوريد؟ (معصومة... وأنت؟)
- متولي.

دخل متولي في التفاصيل مباشرة. يحب النساء الممشوقات ذواتي الأفخاذ الطويلة. تزوج متعة من امرأة قصيرة وضئيلة من فترة واضطر أن يحملها أثناء المضاجعة! "متّعت نفسي لنفسك لمدة أسبوع على صداق قدره خمسة آلاف تومان(199)، فهل قبلت الزواج؟" هكذا قال متولي بالفارسية فردت عليه معصومة بالإيجاب.

رفعت معصومة "الشادور" أو "الجادر" وهو الاسم الذي يُعرف به الخمار الإيراني فكاد متولي أن يقع على الأرض. عض شفتيه من الندم. صحيح الفرصة لا تطرق بابك إلا مرة واحدة. كان يجب أن يفهم أن هذه "الكنتورات" المتمردة في العباءة الأنيقة المطرزة لابد وأنها تنطوي على جوهر أصيل، وأن الشكل كثيرا ما يُنبأ بالمضمون. كان يجب أن يعرف أنه لا يوجد حجاب أو نقاب أو برقع أو ملحفة أو شادور أو جادر أو إسدال أو خمار يمكن أن يُخفي جمال المرأة وفتنتها ودلالها. نعم... اتضح أن المرأة جميلة لحد الهوس وموسرة لحد الخبل. كانت زوجة لمليونير من أصفهان. كان الرجل طاعنا في السن وسرعان ما غادر الحياة. يُشبهون هذا النوع من الزيجات في الولايات المتحدة بزواج شهر مايو من شهر ديسمبر May-December Marriage.

اصطحبت معصومة متولي إلى بيتها الفاخر. أصرت أن ترافقه إلى حمام البخار؛ وهناك قصت أظافره ونعمت كعبيه ودعكت جسمه بكريم الزنجبيل والقرفة والقرنفل والريحان وغسلت قدميه بماء الورد والياسمين، ثم ألبسته روب وثير بعد أن مررته على الأدخنة المنبعثة من بخور المسك الهندي. كان متولي مذهولا مما يحدث؛ أحس براحة وخدر في أعصابه وشعور بأن مسامات جسمه تعانق الهواء. هذه أول مرة يتعلم أن للجنس طقوسا. لا بد وأن ما كان يفعله قبل ذلك لا يندرج تحت هذا التصنيف. تذكر "عواطف" التي كان ينام معها مقابل عشرين جنيه في "غيط العنب"، وكيف كانت تخلع ملابسها ببجاحة ثم تقول له بوقاحة "قدامك ربع ساعة... انجز!"

لم ير متولي نسوة تدلل الرجال مثل الإيرانيات. كانت معصومة ماهرة في رقص "الدختر" وعاهرة بكل معنى الكلمة في الفراش. تمارس الجنس وحولها مئات الشموع وكأنها من مجوس الفرس! كانت جميلة الرائحة وكأنها خرجت لتوها من زجاجة عطر باريسي مخلوط بآخر خليجي. لسان حالها يردد مع عشتار: "أنا إينانا دافئة الأطراف قد استحممت. بالعنبر ثغري قد طليت، بالكحل عيني قد صبغت... احرث فرجي يا رجل قلبي. أيها العريس الغالي على قلبي، عظيمة هي مسرّتك، حلوة كالعسل. لقد أسرتني. أقف مرتجفة أمامك. أيها العريس، لو تحملني إلى الخدر." (200)

فعلا حملها متولي إلى حجرة النوم. كان على الفراش نسخة من رواية ناهيد رشلان "بنات إيران". حين سجى متولي معصومة على الفراش

تناولت الكتاب وراحت تتأمل غلافه للحظات ثم ألقت به فاستقر بجوار "الأباجورة". كان هناك لوحة جميلة أعلى الفراش كتبت بها بضع كلمات بالفارسية. قرأها متولي دون أن يعلم معناها، لكن معصومة أوضحت له أنها للشاعر حافظ الشيرازي يقول فيها: أشعل بنور الخمر كأس شرابي/ وقفت بك الدنيا على أعتابي/ كأس رأيت بها الحبيب فهل أتى/ نبأ يحرم خمرة الأحباب؟

قبل متولي معصومة بشهوانية متأججة وتمنى لو امتلك عشرة كفوف ليتحسس كل جزء في جسمها. أخرجت معصومة من خزانة ملابسها "لانجري" بكل ألوان قوس قزح. اختار متولي الأحمر. ما أجمل قمصان النوم الحمراء القصيرة حين ترتديها امرأة شديدة البياض! كل شيء في معصومة جميل حتى أصابع قدميها التي تشبه "الكستبان".

أخرج متولي واقي ذكري من جيب سرواله. أخذت معصومة الواقي وفتحته ثم نفخته كالبالون وفرقعته بأظافرها وهي تضحك بمجون وخلاعة. أخبرته أنها تتناول حبوب منع الحمل، ورغم ذلك فعليه أن يقذف في الخارج إمعانا في الحيطة والحذر. وضعت بعض الفازلين بين ثدييها، ثم أخذت قضيبه بينهما ووضعته بين فخذيها وباطن ركبتيها وقدميها فلم يستطع الصبر أكثر من ذلك وباشرها على جميع الأوجه والصور: من دبرها في قُبلها ومن دبرها في دبرها ومن قُبلها في قُبلها ومن قُبلها في دبرها! الجنس هو الشيء الوحيد الذي يتقنه متولي في هذه الحياة. ما إن يلج قضيبه في فرج امرأة حتى يدير الطيار الإلكتروني Automatic pilot ولا يوقفه إلا عندما تحط طائرته على المدرج.

وقف متولي يوما قبل نهاية الأسبوع يشوي اللحم في حديقة بيتها الفخم. راح يفكر في طريقة يبتز فيها هذه المرأة وينعم معها لفترات أطول، لكن عقاب الله باغته. لا يفلت من عقاب الله أحد سبحانه يمهل الشخص، لكنه لا يهمل الحق. كان متولي قد أصيب بضعف النظر وارتدى نظارة طبية. ولأنه يهتم بمظهره أكثر من مخبره فقد استبدل النظارة بعدسات لاصقة؛ وبينما كان يشوي اللحم ذاك اليوم ساحت العدسات البلاستيكية والتصقت بعينيه وفقد نظره للأبد.

14

جلس برسوم ذات مساء يتعجب من سفر متولي بشكل مفاجئ. أخبره الأخير أنه مسافر لقطر حيث يعمل أحد أقاربه. كان كلام برسوم عن متولي يخنق عطيات. لاحظ تغير وجهها وشرود عقلها فالتفت إليها قائلا:

- عطيات... إنت ساكته ليه؟!... إيه رأيك نخرج النهارده؟

- نخرج نروح فين؟!

- نتمشى في محطة الرمل، أو نقعد على الكورنيش.

- لأ ماليش مزاج.

- على راحتك... طيب إيه رأيك نروح الكنيسة... في النهارده عرض سينمائي.

أمام إصرار برسوم ذهبت عطيات إلى الكنيسة لمشاهدة العرض

السينمائي. كان الفيلم عن القديسات التائبات: المرأة السامرية ومريم المجدلية ومريم المصرية أو مريم السائحة. ولدت الأخيرة في الإسكندرية عام 345 للميلاد. احترفت البغاء حين بلغت الثانية عشر من عمرها. أرادت مرافقة الأقباط الذاهبين إلى أورشليم للحج. لم يكن معها أجرة الركوب فباعت نفسها لطاقم السفينة. لما حاولت دخول كنيسة القيامة شعرت بيد تجذبها للخلف. نامت الليلة حزينة. مارست البغاء لسبعة عشر عاما! جاءها هاتف في المنام يطلب منها أن تسير إلى نهر الأردن. وكما عمد يحيي عليه السلام المسيح في هذا النهر غسلت مريم القبطية عارها ونهضت إنسانة جديدة.

"عندما أخطأ آدم توارى خجلا وستر خزيه بأوراق التين. لكل إنسان الحق في فرصة ثانية. يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون إلى توبة. تب وعد إلى الرب واجعل دموعك غموس خبزك..." هكذا قال راعي الكنيسة في محل تعليقه على الفيلم مضيفا "لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة...[201] ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر... اذهبي ولا تعودي تخطئين...[202] فكما تدينون تُدانون، وبما تكيلون يُكال لكم."[203] عرج الفيلم أيضا على تاييس وبائيسة ومرثا وأفدوكيا وثيؤدورة السكندرية التي خالفت كأخريات الوصية السابعة "لا تزن".

عاشت ثيؤدورة السكندرية أو ثيؤدورة التائبة[204] حوالي عام 487 ميلادية في الإسكندرية. وكلمة ثيؤدورة تعني "عطية الله" أو كما يقول المسلمون "هبة الله". نشأت ثيؤدورة نشأة طيبة، وكانت تحب الناس

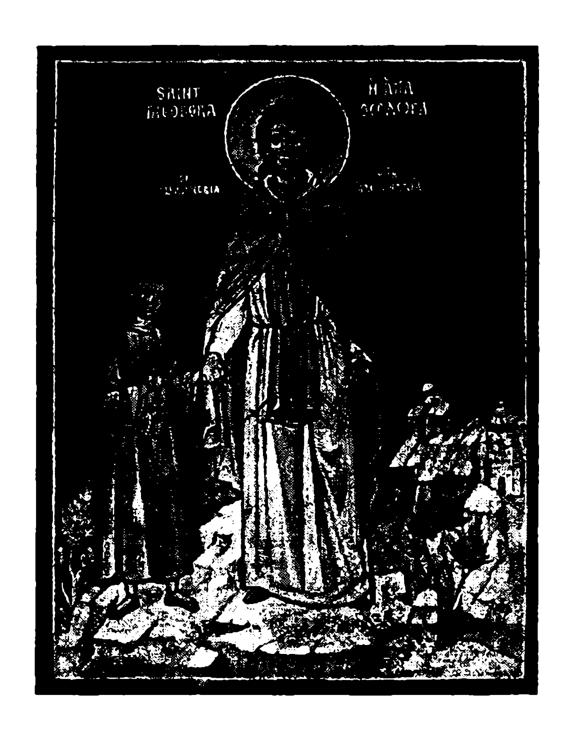
وعمل الخير. حين أينعت وتفتحت زهرة شبابها تزوجت من رجل يعمل في الزراعة يُدعى "ثاؤفيلس" والذي يعني "المحبوب من الله".

كان لثاؤفيلس صديقا موسرا اسمه "بطرس". أُعجب بطرس بزوجة ثاؤفيلس فراودها عن نفسها أكثر من مرة، لكنها صدته. في يوم من الأيام سافر ثاؤفيلس ليبيع محصوله فانتهز بطرس غيابه وأغرى زوجته بالخطيئة حتى تعثرت ووقعت في براثنها. شعرت ثيؤدورة ببشاعة ذنبها فندمت أيما ندم وحلقت شعرها ولبست ثوب الرجال وخرجت من البيت هائمة على وجهها تبحث عن التوبة والخلاص. اتجهت ثيؤدورة نحو الغرب وتوقفت بدير "الهناطون" [205] أو دير "التسعة أميال". سُمي بذلك لأنه كان يبعد عن الإسكندرية بتسعة أميال. أمضت ثيؤدورة الليل أمام باب الدير ثم دخلته في الصباح تحت اسم "تادرس".

في يوم من الأيام طلب الأنبا من تادرس أن يذهب إلى المدينة ليشتري بعض الطلبات. قابل تادرس أو ثيؤدورة زوجها بطرس في الخارج بالقرب من الدير. كان الأخير قد شرع في البحث عن زوجته، لكنه لم يتعرف عليها. في طريق العودة تعرضت عاهرة لتادرس. كانت المرأة قد أنجبت طفلا من الحرام فألصقته به وأبلغت الرهبان بالأمر فطردوا تادرس والطفل من الدير. لم تنطق ثيؤدورة ولم تدافع عن نفسها. علمت أن الله يختبرها ويريد أن يكفر عنها ذنوبها ويقبل توبتها. كان يكفيها أن ترفع ثيابها لتكشف كذب العاهرة، لكنها لم تفعل.

خرجت ثيؤدورة أو تادرس وعاشت في البراري سبعة سنين حتى شب

الطفل. رق قلب الرهبان لتادرس فطلبوا من الأنبا رجوعه. عاد تادرس للدير مريضا وسرعان ما قضى نحبه، وحين جهزوه للدفن علم الرهبان حقيقة تادرس أو ثيؤدورة وكيف تحملت ظلم الافتراء.



قال راعي الكنيسة في تعليقه الختامي على الفيلم: "لقد أدرك الأنبا أنه ظلم ثيؤدورة لأنه تسرع بالحكم عليها وأخذها بالظن والشبهة. ينبغي علينا

أن نتروى قبل الحكم على الناس. تحضرني في هذا السياق الآن قصة الكلب "جيلرت" التي وقعت في إنجلترا في القرن الثالث عشر. تقول الحكاية أن رجلا خرج يوما للصيد تاركا ابنه الصغير في حراسة كلبه المفضل. عقب عودته أصيب الرجل بالذعر والهلع عندما وجد ابنه مغمض العينين وملطخ بالدماء. في الناحية المقابلة كان الكلب جيلرت يغض في النوم وعليه بعض الدماء. ظن الرجل أن كلبه قد قتل ابنه فانهال عليه بالبلطة حتى فصل رأسه عن جسده؛ وما هي إلا دقيقة حتى وجد الرجل ابنه يتحرك وعثر خلف الكوخ على جثة ذئب ضخم، فأدرك حينئذ أن كلبه قد أنقذ ابنه من الموت، وأنه قد تسرع في الحكم حين قتل كلبه الوفي بدلا من أن يكافئه." (206)

وكما ظل بطرس يبحث عن زوجته ثيؤدورة لمدة تسع سنوات أخذ برسوم يبحث عن عطيات التي اختفت يوما أحست فيه أن جدران البيت تخنقها وتعصرها وتحاسبها. كانت قد رأت في الحلم ثعبانا يريد أن يلتهم بيضتين لها فلما حاولت إبعاده عن البيض عضها وأخذ يضرب بطنها برأسه. فسرت لها محاسن الحلم بأن عدو يريد أن يجهضها أو يقتل ما في أحشائها. قررت عطيات أن تذهب لكنيسة العذراء بالدخيلة فتعترف بخطيئتها وتنعم لبعض الوقت بصحبة الصديقة مريم، سيدة النجاة،(207) الممتلئة نعمة، المنزهة عن كل عيب، سلطانة السماء والأرض.

في البداية ظن برسوم أن عطيات ذهبت تواسي جارتهم محاسن بعد أن طلقها زوجها ليعقد قرانه على المرأة الرابعة! نهش السرطان ثدي محاسن الجميل الكبير وأصبح الهواء يلهو في مشد صدرها! وقفت عطيات

بجانبها في فترة العملية والمستشفي وشملت صغارها بالرعاية. خرجت محاسن من المستشفى على منزل أهلها بمنطقة "الحجاري" حيث زارتها عطيات هناك أكثر من مرة وقابلتها أمها بالبشر والترحاب قائلة: "أهلا وسهلا... ده إحنا زارنا النبي."

تخلى عنها تاجر الفسيخ فماذا سيفعل بامرأة بلا صدر؟! ما أُوفي هذا المخلوق المسمى بالرجل حين يستبدل زوجته لأن عارض قد أصابها! ما أوفى هذا المخلوق المسمى بالرجل حين يتزوج على امرأته بعد انقضاء شهر على وفاتها! ما أوفى هذا المخلوق المسمى بالرجل حين "يأكل زوجته لحما ويرميها عظما"!

جلس برسوم ينتظر عودة عطيات! الأمور تسير على ما يرام بينهما هذه الأيام لأن الطبيب المتابع للحمل أوصاهما بعدم ممارسة الجنس. انتظر وانتظر لكنها لم تعد. سأل عنها الجيران وبحث عنها في المستشفيات القريبة وسأل عنها زملائها في الصيدلية لكن دون جدوى. في النهاية عاد برسوم إلى البيت مكسورا. سبب لها كثيرا من الآلام، لكنه لم يتخيل أن تترك له البيت. تمنى ألا يكون قد حدث لها مكروه.

جلس برسوم يبكي في الشقة بمفرده. توجه نحو باب المنزل وقرر الذهاب ليحرر محضرا في قسم اللبان، لكنه عاد ليبحث عن أي خيط يوصله لمكان عطيات فوجد في دولابها بطاقتها الشخصية ودفتر التوفير الخاص بها ومصحف (أم إبراهيم) وعلبة سجائر من النوعية التي يدخنها متولي!!! جلس برسوم مذهولا، لكنه - وعلى غير عادته - ربط بين

وجود المصحف وعلبة السجائر ورحيل متولي وفطن إلى حتمية وجود علاقة بينهما، بل وتوصل إلى أن التوأم الذي يلهو في أحشاء عطيات ليس من صلبه.

لماذا طعنه متولي هذه الطعنة؟! وهل يستحق منه هذا الغدر بعد صحبة السنين؟! بينهما "عيش وملح" كما يقول المصريون فلماذا خانهما؟! لطالما لامه نسيم ومسيحيون آخرون على صحبته لمتولي، لكنه كان يقول لهم أن متولي هو أخوه؛ وأن أمور الدين والمذهب والعقيدة لا تقف حائلا دون الصداقة والمحبة. تذكر قصة سردها على مسامعه أبوه قبل أن يموت عن الخل الوفي والذي هو من المستحيلات المتأصلة.

تقول الحكاية أن حطابين جمعتهما الصداقة ومهنة قطع الأخشاب. في يوم من الأيام كان أحدهما متعبا فأشار على صديقه أن يسلكا طريقا مختصرا إلى الغابة، لكن الآخر رفض وذكره بالأسد القابع في هذا الطريق. صمم الأول على السير في الطريق المختصر لأن كتفه ناء بحمله من الحطب، وفي المنتصف اعترض سبيله الأسد. بادره الأسد قائلا: "حقا أنا محظوظ... لقد اعتل جسمي لأيام وأشاروا عليّ بأكل مخ إنسان حتى أدرك الشفاء." قال الرجل وهو يرتعد ويسفه عقله الذي أورده هذا المورد المهلك: "سيدي الأسد... أنا فداك، لكن أود أن ألفت نظرك إلى أني لا أمتلك مخا ولا دماغا." قال الأسد: "كيف ذلك؟!" رد الرجل: "الأمر ببساطة هو أنني معتوه ومخبول، بل ومجنون؛ ولو كان لدي ذرة من عقل أو حكمة ما تركت الطريق الآمن وسلكت الطريق الوعر الخطر. على أي حال لدي حل لمشكلتك." سأله الأسد: "ما هو؟!" رد الرجل: "لي صديق

تركته في الطريق الطويل، وهذا الرجل يمتلك مخا طيبا وعقلا راجحا."
وهكذا ترك الأسد ضحيته وتوجه للطريق الآخر حيث افترس الحطاب المسكين الذي باعه صديقه وضحى به من أجل أن ينجو هو!!

جلس برسوم في البيت ينتظر عودة عطيات لتبرأ نفسها وتقول له أن ما استنتجه غير صحيح؛ وحتى لو كان ظنه في محله فهو على استعداد لمسامحتها فهي المرأة الوحيدة التي قبلت به في حياتها. لقد كاد يوما أن ينام مع مومس. لماذا تعتبر أخطاء المرأة من الكبائر بينما يفلت الرجال من حتى اللوم والعتاب؟! انتظر برسوم عودة عطيات وانتظر تماما كبطل الفيلم الذي ذهبت فيه زوجته لشراء طابع بوستة.[208] مع مرور الوقت وجد السلوى في الخمر والمخدرات وأغاني الغدر والخيانة.

كان برسوم يدخن الحشيش ويحتسي البيرة و"يشخبط" بالقلم على حروف اسم عطيات الذي كتبها آنفا على السبورة مرددا وهو يتمايل من السُكر مع الأغنية "غلطان أستاهل أكتر/ اقتلني اكتر واكتر/ هاخد إيه من واحد خاين.../ طيب كنت سيبني شوية افرح/ قال جاي في المجروح وبتجرح... عندما دق جرس الباب. كانت الزائرة هي محاسن التي عادت من بيت أهلها حيث مكثت هناك لبعض الوقت. فقدت كثيرا من وزنها وكسا الحزن وجهها. بادرته محاسن سائلة:

– فين عطيات يا برسوم؟!

– عطيات؟!... آه... هو المعلم خفاجة طلقك ليه؟! علشان خلصت حاجته من جارته ولا علشان مابيعرفشي؟ بصي أنا عندي حل للموضوع ده.

دخل برسوم غرفة النوم ثم عاد بالقضيب الصناعي الهزاز:

- بصي ده بيشتغل كده، بس تقريبا البطارية خلصت.

- الله يخيبك يا بعيد.

- خلاص بلاش... ولا هو طلقك علشان تخينة، ده حتى المثل بيقول "يا واخد التخينة أوعى تخاف منها مخدة ومنها لحاف"... ولا يمكن اكتشف إن متولي بيظبطك.

أدركت محاسن أن برسوم ليس في وعيه، وأن عطيات قد تركت له المنزل فدفعته بيدها بعيدا عنها وانصرفت قائلة:

- ده إنت مش برسوم؛ ده إنت طور الله في برسيمه!!

اليوم هو 8 يونيو -حزيران- بؤونة من عام 2012 للميلاد. اليوم ينتقل آمون من شرق النيل إلى غربه تكريما للراقدين. اليوم رحلت عطيات بعد أن ولدت طفلين مختلفين عن بعضهما بالمرة.

كانت عطيات ضحية، بل وأضحية لكثير من الأمور العجيبة في بلادنا. كلنا ضحايا: أنا وأنت وفادي وحسناء وسوسن وإجلال وشوربجي ورامز وسجدة وبرسوم ومحاسن وحتى متولي وكراديسي. تقهرنا ظروفنا؛ تعاندنا أحلامنا؛ تقمعنا أنظمتنا؛ يُغيب التطرف عقولنا؛ تملأ العتمة قلوبنا. نحن متعبون ومستنزفون ومستضعفون ومجروحون.

لم يعثر شيخ قرية الصيادين على أي إثبات لهوية عطيات فقرر إبلاغ الشرطة وحرر محضرًا بذلك. أرسلت النيابة الطفلين إلى الملجأ والأم إلى ثلاجة مشرحة "كوم الدكة" وكلفت إدارة البحث الجنائي بالتحري عن

الواقعة والنشر عن الجثة في حينه. نفى تقرير الطب الشرعي وجود أي شبهة جنائية. لم يجد الطبيب في خلايا الجسم أو أوصاله أو أربطته أو عظامه ثمة ما يدلل على أن هذه المرأة مسلمة أو مسيحية، لكنه أثبت أن عطيات أو "هبة الله" أو "ثيؤدورة" أو أيا كان اسمها إنسانة لها قلب وكبد ومعدة وكليتين ورئتين. ربما كان موت عطيات مجرد رقم بالنسبة للدولة أو قل خبر، لكنها بالنسبة لآخرين ليست كذلك لأنه مازال منا وممن يعيش معنا وحولنا من يؤمن بالإنسان.

عندما نزل عيد فرج معوض وآخرين[209] إلى بالوعة للصرف لإنقاذ شخص سقط فيها لم يسألوا إذا كان مسلما أو مسيحيا؟ لقد هبوا لنجدة الإنسان فماتوا جميعا بما فيهم من مدوا يد العون له والذي تبين في النهاية أنه مسلم. نعم حدث هذا في مطلع 2010 في قرية "ميت الفرماوي" بمحافظة الدقهلية؛ وعندما هب محمد عاطف عبد الفتاح لإطفاء النيران التي اندلعت في مكتب المحامي ماركو عادل عبد المسيح وترتب على ذلك إصابته بحروق بالغة من الدرجة الثالثة أتت على حياته لم يسأل هل صاحب المكتب مسلم أم مسيحي؟ حدث هذا في بلقاس في نفس الشهر تقريبا وفي نفس المحافظة التي يتجمع فيها المسيحيون والمسلمون للاحتفال بمولد القديس مارجرجس بقرية "ميت دمسيس"، وهي عين المحافظة التي شهدت مصادمات طائفية في "ميت القرشي" و"كفر البربري" و"طلخا" وأماكن أخرى! ما وقع في الدقهلية يحدث في المنيا والإسكندرية والبحيرة والغربية وأسيوط والفيوم وغيرها من أمور عجيبة يصعب تبريرها ولا تستقيم إلا لو وضعناها تحت المثل الشعبي الذي يقول

"لا بحبك ولا أقدر على بعدك"!

على أي حال، لم تهتد التحريات لأي شخص تعرف على جثة عطيات فصرحت النيابة في النهاية بدفنها مع المسلمات في مقابر الصدقة بأبيس. وقفت سيارة الإسعاف على الطريق الإسفلتي وتعين حمل الجثمان عبر مدق ترابي ضيق يفضي إلى المقابر. هرع المارة والعابرون إلى حمل المحفة. عندما مر الجثمان وقف الجالسون في المقاهي والمطاعم وانتصب الفلاحون في الحقول احتراما للإنسان.[210]

كلنا ندرك أن هذه هي النهاية المحتومة، لكننا لا نصدق أن الدور سيحل علينا. يبدو أن حل معضلة الموت هو أن تتناساها أو على الأقل نحاول ألا تفكر فيها. حتى هؤلاء الأشخاص الذين يحملون المحفة على أكتافهم يفكرون فيما سيفعلون بعد الجنازة.[211] نعم... كلنا يؤمن يقينا أن الموت موجود، لكننا لا نعتقد أننا سنمضي مثل الآخرين!

صلى الحاضرون الجنازة على عطيات في مسجد يتصدره صندوقان كُتب عليهما "تبرعوا لاستكمال بناء المسجد". دعا المشيعون لها بالرحمة والمغفرة. عادت عطيات الإنسانة إلى الأرض لتدور في رحاها وتعود من جديد في قطرات الندى ونسيم الصباح وعبير الورود.

في اللحظة التي أُغلق فيه على عطيات باب القبر كان موظف السجلات في الملجأ على بعد بضع كيلومترات يفتح دفتره ليدون بيانات الوليدين. وضع خطا أمام جميع الفراغات. الخانة الوحيدة التي استطاع أن يملأها دون أن يستشير أحد أو يسأل أحد هي خانة الجنسية. يتعدد الآباء، لكن الأم واحدة. مصر رحم الجميع؛ مصر وطن الجميع.

حادي بادي كرنب زبادي

سيدي محمد البغدادي

الراجل ده من بلادي

"دمه حامي[212]" وكلامه سامي[213]

اسمه جرجس وكمان هادي

وفرعوني وقبطي ومغربي ويوناني

وفارسي ونوبي وروميى وأرماني

و"عفت" يمشي ولادي و بناتي

وعرباوي من هوارة وزناتي

وكريتي ومالطي وشوام ويماني

ويني وشريف وسمحون وزخاري

ولاشين وسطوحي وأسطى نجاتي

وصعيدي وعرباوي وعم بخاتي

سلفي وصوفي مع إخواني

سُني وشيعي مع ملكاني

شركس وفوال وقطان وغزاوي

وحبشي وهندي وفرنساوي

وجهيني وكردي وطحان وسيناوي

حادي بادي كرنب زبادي

شالوا وحطوا كله على دي

الكل مصري... الكل ولادي

الهوامش

1. من أغنية "ساعات" تأليف الأستاذ حسن توفيق.
2. بطرس.
3. يوضع مع الملح على سرة الطفل ويعتقد الناس في المناطق الشعبية أنهما يساعدان في تجفيف الأنسجة حولها.
4. http://www.q8zoom.com/vb/showthread.php?t=10158
5. المقصود سطر أو سطرين على صفحات التواصل الاجتماعي خاصة "تويتر".
6. المقصود 2008 باعتبار الرأي الذي يقول أن الألفية الثالثة بدأت عام 2001.
7. مروان بن محمد أو مروان الجعدي أو مروان الحمار.
8. (1709–1769 م). أقام إمارة في فرشوط.
9. يوحنا 3:16.
10. لو: 10–30.
11. لبهاء طاهر.
12. لابن القيم الجوزية.
13. للماوردي.
14. قمص مستبعد من الكنيسة الأرثوذوكسية. يدير قناة في الخارج تثير كثير من الجدل.
15. القس الأمريكي تيري جونز.
16. الإشارة هنا لرسومات الدنمرك وللفيلم الهولندي 2008.
17. الإشارة لأحداث كنيسة محرم بيه بالإسكندرية، 2005.
18. أبو اليزيد البسطامي.
19. المائدة 82.
20. "الكامل في التاريخ".

21. Marian Apparition.
22. يُسمى أيضا بالوليد الثاني أو الوليد الفاسق (743-744 م). شرب الخمر فوق ظهر الكعبة ورمى المصحف بالنشاب قائلا: أتتوعد كل جبار عنيد/ فها أنا ذاك جبار عنيد/ إذا لقيت ربك يوم حشر/ فقل لله مزقني الوليد.
23. الإمام أبو حامد الغزالي.
24. أحل الداعية المصري محمد الزغبي أكل لحوم الجن، مشيرا في فتواه إلى أن الجن يتشكل في صورة الإبل والماشية.
25. الطرح الأخير الخاص بالديناصورات هو للكاتب السعودي عبد الله بخيت.
26. كتب الأستاذ نجيب محفوظ قصة قصيرة تناولت فصل الأطفال في حصص الدين بعنوان "جنة الأطفال". في رواية "شرف" لصنع الله إبراهيم يشعر "رمزي بطرس نصيف" بالخجل والحرج عند خروجه مطأطئ الرأس أمام زملائه المسلمين أثناء حصة الدين.
27. من أغنية "ألف ليلة وليلة".
28. الإشارة إلى قصيدة النهر الخالد لمحمود حسن إسماعيل، لحنها وغناها محمد عبد الوهاب.
29. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر... أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجرى، وأن كان الله الواحد القهار هو يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك.
30. يُقال أن هذه القصة هي أساس عبارة "النساء أولا" أو Ladies First.
31. اسم مسلسل سوري.
32. اسم مسلسل تركي.
33. تعني كلمة "ايجبتوس" أرض القبط، وأما كلمة "قبطي" فتعود إلى "قفطايم" بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، وتُنسب "مصر" في قول إلى "مصرايم"، وقيل أن ابنه "قفطايم" هو الذي عمر مدينة "قفط" بصعيد مصر. راجع كتاب "تاريخ الأمة القبطية" ليعقوب نخلة روفيله، القاهرة، مطبعة التوفيقية، 1898.
34. أغنية من تأليف بيرم التونسي وغناء سيد درويش.
35. كما قال ابن القيم.
36. من المعلوم أيضا أن من بنى جامع عمرو بمصر عتيقة هو قبطي يُدعى "بقطر" وأن من صمم جامع أحمد بن طولون هو قبطي يُسمى سعيد بن كاتب الفرغاني.

37. راجع تاريخ الطبري 283/2.
38. المائدة 32.
39. ومن مشاهير المسلمين الذين تزوجوا من نصرانيات عثمان بن عفان رضي الله عنه تزوج نائلة بنت الفرافصة ومعاوية بن أبي سفيان تزوج من ميسون بنت بجدل الكلبية والوليد بن يزيد تزوج من امرأة يُقال لها "سفري" والمتوكل تزوج من "شعانين" وعبد العزيز بن موسى بن نصير نكح زوجة لذريق المكناة بأم عاصم.
40. العبارة للمفكر الفرنسي المسلم رجاء جارودي، وأيضا عنوان كتاب للدكتور عبد المنعم الدلاتي وهو سوري الجنسية من مواليد حمص الأبية.
41. وردت القصة في "ديوان الصبابة" لابن أبي حجلة، ويبدو أن فيها إضافات وزيادات وبعض المبالغات.
42. سيناريو يوسف معاطي 2008.
43. الإشارة هنا إلى رواية فورستر "ممر إلى الهند" E. M. Forester "A Passage to India"..."Not now...not here".
44. البقرة 256.
45. أشار مصطفي مناع في العدد 27 من الأهرام الرقمي (سبتمبر 2011) إلى قيام مجموعة من الشباب الجامعي بتقديم عرض قصير ومعبر عن الوحدة الوطنية وهو "التوأم" على مسرح فيصل ندا. ومن إسهامات شباب الجامعة أيضا في محاربة الفتنة الطائفية الفيلم التسجيلي "صندوق خشب" والذي أنتجته كلية الإعلام جامعة القاهرة عام 2009.
46. جزء من قصيدة "ينصر دينك يا بطل" لأحمد فؤاد نجم.
47. تماما مثل شخصية "شمشون" في رواية يوسف القعيد "قطار الصعيد".
48. هذا طرح غير سليم فالأقباط لا يصلون سرا وإنما طبيعة معظم صلواتهم تحتم عليهم إقامتها داخل الكنائس، ناهيك عن أنها تُذاع الآن عبر العديد من شاشات التلفاز.
49. يحصل النصارى في مصر على أجازة رسمية في 7 يناير للاحتفال بعيد الميلاد المجيد.
50. تحريف لكلمة "قبطي".
51. معلوم أن الأقباط تعرضوا للمضايقات في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ومنها ركبوهم الدواب والساقين في إتجاه واحد وتعليق صليب في رقابهم، وأدى الأمر الأخير إلى ترك بقع زرقاء في هذه المنطقة.

52. إشارة إلى الصليب.

53. العبارة للأنبا بيشوي، سكرتير المجمع المقدس ورد عليها باستفاضة كل من الدكتور محمد عمارة والدكتور محمد سليم العوا.

54. .Fish and guests stink after three days

55. المقصود هنا أسوار الأديرة في الصحراء الغربية حيث يعيش الرهبان بمبدأ "الخلوة حلوة"، والحقيقة أن سبب منعة هذه الأسوار هو تعرض الأديرة للتخريب على يد الأمازيغ والبدو في العصور الغابرة.

56. إمبراطور روماني (284–305م). عُرف باضطهاده للمسيحيين، ويُطلق أقباط مصر على سنوات حكمه اسم "عصر الشهداء".

57. حين أعلن الموقع الرسمي للفاتيكان أن عدد الأقباط 6 % أي حوالي من أربعة إلى خمسة ملايين ثارت الكنيسة القبطية ضده وطالبته بالكف عن التدخل في شئون مصر والأقباط موضحة أن عدد الأقباط يتجاوز ضعف هذه النسبة... والحقيقة أن العلاقة بين الفاتيكان والكنيسة القبطية ليست طيبة إلى الحد الذي جعل رهبان دير سانت كاترين يمنعون البابا يوحنا بولس الثاني أثناء زيارته لمصر من الصلاة داخل الدير فصلى على بواباته الخارجية.

58. من الشعارات التي رفعها الأقباط في أحداث ماسبيرو بعيد ثورة 25 يناير "ارفع صليبك فوق أنت قبطي" على منوال "ارفع رأسك فوق أنت مصري"، وتغيير الشعار ومضمونه يُلقي بظلال على القضية المطروحة.

59. من العجب أن تُدرس اللغة اللاتينية في الجامعات المصرية ولا تُدرس القبطية. نحن نتحدث هنا عن لغات ميتة كُتبت بها مخطوطات وتراث إنساني في الجهل به خسارة كبيرة للإنسانية. الأقباط لا ينادون بإحياء اللغة القبطية ليتحدثوا بها لأنها غير مناسبة لهذا العصر. الأقباط كانوا أكثر جرأة من شيعة إيران المسلمين حين تقبلوا اللغة العربية؛ بل إن منهم من تفوق في هذه اللغة وألف فيها كتبا ومعاجم.

60. راجع كتاب كرياكوس ميخائيل "الأقباط والمسلمون تحت الحكم البريطاني" والذي نشره أثناء وجوده في لندن واتهم المسلمين بالبربرية وأنهم اغتصبوا أرض مصر.
Kyriakos Mikhail, Copts and Moslems under British Control, London, .Smith Elder & Co., 1911

61. في مرحلة لاحقة نادى موريس صادق، محامي مصري هاجر إلى الولايات المتحدة عام

2000 ورأس الجمعية الوطنية القبطية الأمريكية بإقامة وطن منفصل للأقباط - أسقطت الحكومة المصرية الجنسية عن موريس صادق الذي صرح "أن الجنسية المصرية ليست ورق، ولكنها في دمي وعروقي وعظامي، وآبائي ورفات أجدادي."

62. من شعارات ثورة 25 يناير المجيدة، ومنها أيضا "أنا مصري مسلم ومسيحي."

63. عبر غاندي عن إعجابه بالوحدة الوطنية المصرية في خطاب أرسله لزعيم الأمة سعد باشا زغلول.

64. مثال على ذلك دير "أبو فانا" بالمنيا، 2009.

65. مثال على ذلك كنيسة "القديسين" بسيدي بشر بالإسكندرية في مطلع عام 2010.

66. يُقال أن مدارس الآحاد وجماعة الأمة القبطية التي تأسست عقب عزل البابا يوساب الثاني عام 1875-1956 وتولي كيرلس السادس كانا لهما دور في دخول القبط معترك السياسة وصدامهم مع الحكومة والمسلمين.

67. يطلق على القبط وأغلب المسيحين الشرقيين "اليعاقبة".

68. راجع ساويرس بن المقفع "سير لآباء البطاركة".

69. حركة مينا بن بكير.

70. ثورة البشموريين (البشامرة) سكان المنطقة المحيطة ببحيرة ادكو عام 832 م. راجع رواية سلوى بكر "البشموري".

71. راجع أيضا "تاريخ الكنيسة القبطية" للشماس منسي القمص، القاهرة، مطبعة اليقظة بالفجالة، 1924، ص 593.

72. المقصود هنا يعقوب حنا وكتيبته.

73. في إحدى المناسبات سأل ضابط إنجليزي واصف غالي، ابن القتيل: "كيف تضع يدك في يد من قتل والدك؟!" فرد قائلا: "أفضل أن أضع يدي في يد من قتل والدي على أن أضع يدي في يد من قتل وطني؟!"

74. كان السادات قد ضغط على البابا شنودة الثالث ليزور القدس، لكنه رفض.

75. من مآثر هذا الرجل العظيم أنه سار في جنازة الإمام حسن البنا.

76. أديب مصري (1860-1934). تعلم اللغتين الفرنسية والأرمينية بمدرسة الأرمن بالقاهرة، والعربية والإنجليزية والإيطالية بمدرسة الأقباط، ثم التحق بالأزهر فحفظ

القرآن الكريم ودرس علوم الحديث والفقه (معلوم أنه كان في الأزهر آنفا رواقا يدرس فيه الأقباط).

77. المقولة للبابا شنودة الثالث.

78. من أسرار الكنيسة السبعة، ويُعزى لما ورد في إنجيل مرقص على لسان السيد المسيح عليه السلام "خذوا كلوا، هذا هو جسدي..." 14:22.

79. شارع أو منطقة تقع بالقرب من السيدة زينب.

80. راجع كتاب "نقل جبل المقطم، معجزة أم خرافة؟" للأستاذ علي الريس.

81. ذكر ابن الخطيب في صفحة 253 من كتابه "تاريخ المغرب العربي" أن زايدة كانت زوجةَ "المأمون بن المعتمد بن عبَّاد" حاكم قرطبة، فلمَّا دخل المرابطون، وقتَلوا المأمون فرَّت زوجته إلى قشتالة، فاعتنقَت النصرانيَّة، وبنَى بها الملك "ألفونسو السادس" ثمَّ عُمِّدت باسم "إيزبيلا"، وتوُفِّيت عند وضعِها لابنها الأمير "دون سانشو" ودُفِنَت في دير ساهاجون".

82. راجع رواية "شفرة دافنشي" لدان براون والتي انتقدتها كنائس عديدة. والجدير بالذكر أن روايات أخرى أثارت أيضا ضجة مثل "الإغواء الأخير للسيد المسيح" للكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكيس ورواية "عزازيل" ليوسف زيدان.

83. Religious Toleration in Egypt, official correspondence related to the indemnity obtained for the maltreatment of Farsi El-Hakim, an agent of the American missionaries in Egypt.

84. تغير اسمها إلى ساحل سليم، وكانت تتبع البداري قبل أن تصبح مركزا مستقلا. يُقال أنها تنتسب لبني سليم وهي قبيلة عربية حجازية.

85. ظهر ذلك جليا خلال ثورة 25 يناير حين كان المسيحي يصب ماء الوضوء للمسلم ثم يؤمن ظهره أثناء صلاته وحين حمى المسلمون الكنائس والأديرة.

86. أُسس عقب ثورة 25 يناير بمبادرة من شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب والبابا شنودة الثالث ومقره الأزهر الشريف، لكن دوره لم يُفعل.

87. أغنية "يبقى إنت أكيد في مصر" والتي تتناول الوحدة الوطنية.

88. راجع كتاب عبد التواب يوسف "كتاب لكل المصريين"، دار سفير.

89. مصطفى راشد (مارك جابريل) "ضد التيار"، المركز الدولي الأكاديمي، الولايات المتحدة، 1997... وفي قصته بعض الشبه بقصة تنصر "الواضح بن رجا" و"عبيد الله بن جحش". ولأن مصطفى محمد راشد ينتمي للأزهر مثله في ذلك مثل محمد رحومه فقد تم تسليط الأضواء عليه. الجدير بالذكر في هذا الموضع أن النصارى يزعمون أيضا أن طه حسين والشيخ محمد الفحام (1894–1980)، شيخ الأزهر قد تنصرا.
90. توفى في مارس 2012.
91. تبعد عن مدينة أسيوط بحوالي عشرة كيلومترات.
92. لثروت أباظة.
93. بطولة حسين صدقي وليلى فوزي، 1954.
94. فيلم مصري 1954.
95. فيلم مصري 1949.
96. شاعر ولد في مدينة عكا عام 1872 وتوفى عام 1942.
97. وفي رواية أخرى "المليح".
98. طالع كتاب "مرة واحد مسلم وواحد مسيحي" لسمير محب عن دار صفصافة، وكتاب "أستيجماتيزم في المخ" لمصطفى الصياد ومينا شنودة عن دار كيان.
99. تجدر الإشارة إلى أن زيت "الميرون" وهو السر الثاني من اسرار الكنيسة السبعة تستخدمه الكنيسة في الرشم.
100. Flat or retracted nipples.
101. بطولة هند رستم.
102. راجع رواية "شرف" لصنع الله إبراهيم ورأي شخصية الشيخ عمر عبد الكافي فيها بالنسبة لأعياد الأقباط.
103. الفتوى لجماعة الشباب المجاهدين بالصومال.
104. "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم" المائدة 33.
105. افتتاحية رواية "ميرامار" لنجيب محفوظ.

106. حديث شريف رواه عبد الله بن عمر.

107. أمير الشعراء أحمد شوقي.

108. كليوباترا.

109. 256 – 336 م.

110. 1972 – 1977.

111. 68 م.

112. الإمام البوصيري.

113. سان فنسان وسان جان أنتيد وسان شارل بورميه... الخ.

114. تتر مسلسل "خاتم سليمان".

115. جا 1:18.

116. في وقت المستنصر بالله الفاطمي 1036-1094م ويقصد بها المجاعة التي حلت بمصر نتيجة قلة مياه النيل، فقد يبست الأرض وانتشر الطاعون وهلك الحرث والنسل والأخضر واليابس وأكل الناس القطط والكلاب. وذكر ابن إلياس في "بدائع الزهور في وقائع الدهور" أن الناس أكلت الميتة والأطفال وصنعت الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح!!

117. يقول محيي الدين ابن عربي: " لقد صار قلبي قابلا كل صورة/ فمرعى لغزلان ودير لرهبان/ وبيت لأوثان وكعبة طائف/ وألواح توراة ومصحف قرآن"

118. مات الصيف الجميل ليحيا الخريف الكئيب، وبين ذاك الموت وهذه الحياة قد وقف الزمن مشيرا بيمينه نحو غصن عرته الرياح، وقصفته العاصفة قائلا: "هذا رمز أيامك، أيها الإنسان، فتأمله جيدا: يقظة ففرح فحزن فنزاع فنوم عميق. أهذا رمز حياتنا؟!

119. راجع كتاب الشيخ محمد الغزالي "قذائف الحق" حوار مع ملحد ص 197.

120. الأعراف 12.

121. مر 14:18.

122. لو 4:4.

123. مت 41:26.

124. مر 36:8.

125. عام 64 هـ في زمن يزيد بن معاوية وعام 73 هـ في زمن عبد الملك بن مروان.

126. قول ينسبه بعض العلماء للسيدة عائشة رضي الله عنها.

127. أستاذ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وإليه ينسب فيقال له "مروان الجعدي".

128. من قصيدة "قتلناك يا آخر الأنبياء" لنزار قباني.

129. راجع نظرية صمويل ههنتجتون.

130. نشأت في الولايات المتحدة Ku Klux Klan .

131. نشأت في إسرائيل.

132. في نيجريا.

133. راهب تشيكي اهتم بجانب عمله الكنسي في تهجين نبات البازلاء، ثم أرسل في 1866 نتائج دراسته للمتخصصين فتهكموا عليه، والآن يدين العالم بأسره لهذه الدراسات التي باتت تُعرف بقانون مندل للوراثة.

134. طرح للدكتور عدنان إبراهيم.

135. خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام فلقيه أبو عبيدة بن الجراح وأخبره أن وباء الطاعون قد وقع فقرر الفاروق أن يعود أدراجه. سأله أبو عبيدة: "أفرارا من قدر الله؟" فرد عمر: "نعم... نفر من قدر الله إلى قدر الله."

136. صرح الشيخ على جمعة مفتي الديار المصرية لجريدة "الواشنطن بوست" عام 2007 بجواز تغيير الملة انطلاقا من الحرية الدينية ومبدأ "لكم دينكم ولي دين" مع عدم إقامة حد الردة ما لم يهدد النظام العام كما حدث مع حرق المصحف أو تشبيه بالآيات الشيطانية كما فعل سلمان رشدي.

137. Joseph Francois Anthelme Seve. ولد عام 1788 وتوفى عام 1860. كان له في القاهرة تمثال وشارع باسمه.

138. يُسمى "اللادينيين" أيضا بـ "الدهريين" حيث يؤمنون بأن الناس تعيش وتموت ولا يفنيها إلا الدهر.

139. عشب يقال أنه يساعد على الحمل.

140. للدكتور أحمد الخميسي.

141. عدد 18 يونيو 2004.

142. هناك من علماء المسلمين من يحرم أطفال الأنابيب لأنه على الإنسان الرضا بحكم الله في قوله "ويجعل من يشاء عقيما" الشورى 50.

143. القاتل والمرتد لا يرثان في الشريعة الإسلامية.

144. السيدة مندرة أبو المجد القرشي عمة الإمام إبراهيم الدسوقي.

145. ويُسمى أيضا "جبل الكف" حيث يذكر الأقباط أنه بينما كانت العائلة المقدسة بجوار الجبل كادت صخرة كبيرة أن تسقط عليهم فمد المسيح يده ومنع الصخرة من السقوط فامتنعت وانطبعت كفه على الصخر.

146. الفكرة لبلال فضل من مسلسل "أخت تريزا".

147. http://www.nytimes.com/2003/03/03/nyregion/separated-at-birth-in-mexico-reunited-at-campuses.

148. في إبريل 2009 تم حرق خمسة منازل للبهائيين في قرية الشورانية بمحافظة سوهاج.

149. Inverted nipples.

150. من رباعيات عمر الخيام "لبست ثوب العمر لم أُستشر/ وحرت فيه بين شتى الفكر".

151. ترنيمة "تائه في غربة" للبابا شنودة الثالث.

152. معلوم أن الأقباط لبسوا الأسود مكرهين على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

153. لو 1:42.

154. راجع رواية رؤوف مسعد "بيضة النعامة"

155. نسبة إلى الجليل.

156. العاشر من محرم نجا الله فيه موسى عليه السلام وقومه كما جاء في الحديث الشريف.

157. اصطدم أحد الأشخاص بسيدة كانت تحمل قفصا محملا بالبيض فأراد تعويضها عما فقدته من البيض وقال لها: كم بيضه كانت بالقفص؟ فقالت: لو قسمت البيض على ثلاثة لبقيت بيضة، وعلى أربعة تبقي بيضة، وعلى خمسة تبقي بيضة، وعلى ستة تبقي بيضة، وعلى سبعة لا يبقي شيئا، وهنا أدرك المجتمعون بعد عنت أنه كان بالقفص 301 بيضة.

158. وعلى عكس ذلك كتب هاني نسيرة في كتابه "المتحولون دينيا": "غير أن العوام في كل دين – الجماهير– هم أبسط الناس فهما له، إلا أنه كثيرا ما يكونون أكثرهم تعصبا وتطرفا فيه، فالعامي ملتحم بالمؤتلف ولا يطيق التعايش مع المختلف." القاهرة، مركز

أندلس لدراسات التسامح ومناهضة العنف، 2009، ص 75.

159. راجع إبراهيم عبد المجيد "لا أحد ينام في الإسكندرية".

160. راجع رواية خيري شلبي "إسطاسية".

161. قُتل خالد سعيد قبل ثورة 25 يناير بينما قُتل مينا دانيال في أحداث ماسبيرو عقب الثورة.

162. المقولة للأستاذ الإمام محمد عبده بعد عودته من سنوات النفي.

163. ونحن كالأرض لزارعينا/ ننبت ما قد زرعوه فينا.

164. الاستمارة الخاصة بالاستقالة.

165. راجع كتاب محب سمير "مرة 1 مسلم و1 مسيحي"، دار صفصافة، القاهرة، 2010.

166. الفتح 29.

167. البطريرك الثاني عشر ديمتريوس والذي رأس الكنيسة من 187 إلى 230 م.

168. يخدم في الكنيسة المرقصية بالأزبكية.

169. رواه مالك في الموطأ والبيهقي في السنن.

170. نسبة إلى السلطان العثماني محمود. افتتحها محمد علي عام 1820 بعد أكثر من عقد كامل في الحفر توقف خلالها نظرا لحروبه مع الوهابيين وتفشي مرض الطاعون. شارك أكثر من 300 ألف فلاح في عملية الحفر، لقي منهم 12 ألف فلاح مصرعه. هذا وساهمت هذه الترعة في ازدهار التجارة النيلية بين الإسكندرية وباقي أقاليم مصر بشكل كبير.

171. وهي الجن والكافرون والإخلاص والفلق والناس، ويُعتقد أن هذه رقية شرعية لفك المربوط.

172. اسم فيلم مصري يتصدى لمشكلة الضعف الجنسي.

173. هنري الثامن.

174. الجبرتي، ج 4، ص 135.

175. http://st-takla.org/books/pauline-todary/coptic-language/arabic-slang.html

176. "من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني ومن يتزوج من مطلقة فإنه يزني" مت 5 : 32.
177. يُقال أن هذا المحل تمتلكه عائلة مسيحية.
178. إنتاج 1960. بطولة شادية وأحمد مظهر وعمر الشريف.
179. من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا. مت 19 : 5.
180. (3849)
181. Hetero-paternal super-fecundation.
182. الوصية العاشرة.
183. الحجر 88.
184. حديث شريف.
185. مت 5:28.
186. حديث شريف.
187. صممه الفرنسي جوستاف إيفيل عام 1871 وهو نفيس الشخص الذي صمم برج إيفيل بباريس وكوبري أبو العلا بالقاهرة.
188. أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.
189. هي تقية عمار بن ياسر رضوان الله تعالى عليه أول من استخدمها وهي وسيله لإنقاذ المؤمن من الموت.
190. الراجعون عند الشيعة هم: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب والإمام الحسين وكذلك باقي الأئمة والأنبياء عليهم السلام، وكذلك على رجعة عدد من أنصار الإمام المهدي ووزرائه وبعض أصحاب الأئمة وشيعتهم.
191. هي "أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى".
192. روكسانا.
193. شاه بانوه وهي أم زين العابدين.
194. بوران.
195. "بحار الأنوار" للمجلسي، باب: الممدوح من البلدان والمذموم منها.

196. أو "الأحواز" من "حاز" بمعنى "امتلك". سميت أيضا "خوزستان" أو "عربستان"، وتقع شمال غرب إيران.

197. علي بن موسى الرضا. عينه المأمون وليا للعهد، لكنه توفي في حياة المأموت.

198. يعتقد الشيعة أن الفاروق عمر رضي الله عنه كسر ضلع السيدة فاطمة ليجبرها على بيعة أبي بكر الصديق! ومعلوم أن الشيعة أقاموا مزارا لأبي لؤلؤة المجوسي قاتل الفاروق!

199. التومان يساوي عشرة ريالات.

200. صموئيل كريمر، "طقوس الجنس المقدس عند السومريين"، ترجمة نهاد خياط، ص 135.

201. لو 5 : 32.

202. يوحنا : 8.

203. الإصحاح السابع، الآيتان 1 – 2.

204. St. Theodora of Alexandria or Theodora, the penitent.

205. سُمي أيضا بدير الزجاج وسكنه القبط والسريان. يقع الدير على ربوة في طريق مرسى مطروح على بعد حوالي 45 كيلو متر من الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط وبالقرب من بحيرة مريوط عند مدخل برج العرب القديم. استقبل هذا الدير من قبل القديسة أناستاسيه التي توفيت عام 576 للميلاد وقبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بأربعة وثلاثين عاما. نشأت أناستاسيه في القسطنطينية. أغرم بها الإمبراطور يوستنيانوس وأراد أن يتزوجها، لكنه كان متزوج. هربت أناستاسيه إلى الإسكندرية وسكنت دير الهناطون. بعد وفاة زوجة الإمبراطور تجدد الأمل في قلبه وظل يبحث عن أناستاسيه، لكن دون جدوى لأنها عملت بقول المسيح عليه السلام "إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني" مت 19 : 21.

206. لازال قبر الكلب موجودا حتى الآن في قرية تدعى Beddgelert أي "قبر جيلرت" ويزورها الآلاف سنويا.

207. اسم كنيسة للسريان الكاثوليك في العراق تعرضت للاعتداء عام 2010.

208. "الراجل ده هايجنني" بطولة شويكار وفؤاد المهندس.

209. وابن عمه ديفيد وروماني مراد رزق ونادر كمال فرج.

210. حين مرت جنازة وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحد الصحابة: إنها جنازة يهودي (مستنكرا الوقوف) فرد صلى الله عليه وسلم على قائلا : أليست نفسا؟!

211. الطرح للدكتور مصطفى محمود في كتاب "لغز الموت".

212. يُعتقد أن المصريين من أصل حامي.

213. المقصود اللغة العربية.



المؤلف في سطور

محمّد عزب

- د. محمد السيد علي عزب.
- مدير معهد اللغات ق م بالإسكندرية.
- أستاذ الأدب الإنجليزي "المنتدب" بكلية التربية، جامعة الإسكندرية.
- أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية اللغات والترجمة، جامعة فاروس، الإسكندرية.
- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

حورس، الإسكندرية، 2007 (A Guideline to Translation)

البراء، الإسكندرية، 2008 (Brush upon your English)

البراء، الإسكندرية، 2009 (Enhance your English Vocabulary)

- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، 2009.
- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا "ترجمة"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير 2010.
- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.

- اللغـة الإنجليزيـة كمـا يتكلمهـا أهلهـا، البيطاش للنشـر و التوزيـع، الإسكندريـة، 2010.
- قاموس المجـاز المصـوَّر للغـة الإنجليزيـة، البيطاش للنشـر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.
- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، 2010.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، 2010.
- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، 2010.
- اللغة العالمية الموحَّدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، 2010.
- صدفة بتجمَّعنا (رواية)، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2011.
- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2012.
- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، (1942 - 1945)، آراؤهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي (Lambtert Academic Publishing)، ألمانيا، 2011.
- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، الإسكندرية، 2012.

أرحام سماوية

نام كل يوم على أمل أن نجد الفرحة، ثم نفتح عيوننا على نفس الأثاث ونفس المتاع ونفس الأشياء. أيام محبطة وحياة زائفة. لماذا لا نحصل على ما نريد؟! لماذا لا نحصل على الوظيفة التي ننشدها وعلى المسكن الذي نبتغي وعلى المرأة التي نشتهي؟!... لماذا نؤجل أحلامنا أو نتنازل عنها؟! لماذا نحلم بالفرح وننال الدموع؟! لماذا كل هذا البكاء في حياتنا؟! لماذا نتألم ونتعذب ونتوجع ثم نموت وتموت معنا أفكارنا وعلومنا ولغاتنا؟!..... نستيقظ كل يوم من النوم ونسأل أنفسنا أين نحن؟! وهل نحن على قيد الحياة؟! وهل هذه هي الحياة؟! لماذا تُسمى حياة وتنتهي بالموت؟! وهل نحن موجودون فعلا أم أن حياتنا لا تعدو أن تكون "فوتوشوب"؟! وإلى متى سنظل هنا؟! وكيف سيكون الوضع هناك؟! ومتى يكون رحيلنا؟! ما هي آخر كلمة سننطق بها؟ من هو آخر شخص سنراه؟ ما هو آخر طعام سنتناوله؟ وهل يجب أن نذهب؟! لماذا لا يأتي هذا الغد الذي يقولون عنه أنه أفضل؟! لماذا يأتي الغد الخالي الوفاض فنضطر إلى أن ننتظر غدا غيره؟! نمضي كالحملان في طريق مرسوم ونسأل في خجل مع القطيع: "كم غدا تبقى لنا في هذه الحياة؟!"




9 789774 901898